خَطّان لا يَلتَقيان!

خَطّانِ لا يَلتَقيان!

رغد أيمن

رواية

المُقدّمة:

كان هو كالماء..
هادئاً، ساكِناً.. مُستقرُّ الحياةِ والأفكار!

وكانت هي كالهَواء..
لمّا حَركت ذاك الماء برِياحها العاتية.. أصبح أمواجاً عاليةً،
ودوّاماتٍ ساحِقة!

ولِمَ ذلك التَّعقيد؟!
لِمَ لا نَقولُ مُباشرةً أنهما خَطّان!

وبعضُ الخُطوطِ يستحيلُ التقاؤها مهما حدث!

1- الخاطِفُ اللطيف!

مرةً في حَيّنا..
زارتنا فتاةٌ غاضِبة!

*****

كان جالِساً يقرأ في مُصحفه، صغير الحجم بصوتٍ هادئ رخيم.. مُرتدياً جِلباباً أبيض اللون، وقد هَذَّب شعره الأسود بعناية..

دقائق، حتى سمع صوت القرآن يصدحُ من مُكبّر المَسجد، مُنبّئاً باقتراب موعد صلاة الجُمعة!
ختم الآية التي كان يقرؤها، وأغلق المُصحف مُقبّلاً إياه بهدوء.. ثم قام من مكانه ووقف أمام المِرآة يُتمِّمُ على هيئته، قبل أن يضع مُعطّره، ويخرج من غُرفته بخطواتٍ مُتمهّلة!

- ماما أنا رايح المسجد، عايزة حاجة وأنا راجع؟
قالها بهدوءٍ وأدب، وهو يقفُ أمامها حيثُ جلست على الأريكة الكبيرة بغُرفة المَعيشة، وهي تتحدّثُ مع خالته باهتمام!

هزّت له رأسها علامة النَّفي، مُكملةً استماعها للمُكاملة..

قهقه بخفوتٍ وهو يرتدي خُفّه.. ثم اتجه كي ينزل على درج العمارة..

وما إن خَطى قليلاً في الشَّارع، حتى وَجدَ العَّديد من الصِّبيان، يلعبون بالكُرة..
رأوه قادماً، فتهللت وجوههم وركضوا نحوه وهم يصيحون بحماسٍ سَعيد:
- عمو "عُديّ"، عمو "عُديّ"!
ضحك هو بسعادةٍ، ثم سَلَّم عليهم جميعاً، وهو يعقدُ حاجبيه بتعجّب بعدما رأى معهم صبيّاً لم يَره من قبل!

حيّاه، وقد تذكّر أمر الصلاة بعدما سمع الآذان الأوّل، وخَشي أن تَفوته الخُطبة.. فأخبرهم بابتسامةٍ واسعة:
- يلا يا أبطال عشان نروح نصلّي الجُمعة، ولا ايه؟!

أومأوا له بحماس، وهم يتسابقون تجاه المَسجد، أيُّهم سيصلُ أولاً!
التفتَ بعينيه تجاه ذلك الصبيّ الجَديد، الذي تسحَّب بخُطىً حَذِرةً، ليعود..

فاقترب "عُديّ" مِنه، وابتسم قائلاً بلُطف:
- اسمك ايه يا بطل؟

- "يُوسف" يا عمو!
أجاب بها الآخر بسُرعة..

فأخبره "عُديّ" بابتسامةٍ جميلة، وهو يَمُدُّ له يده بلِين:
- طيب يا جميل الاسم والمَلامح، مش ناوي تروح معانا للمسجد عشان ندخل الجَنّة مع بعض؟ وكمان أنا هحكيلكم مواضيع جميلة بعد الصلاة!
ومتخافش والله، هوصّلك بنفسي لحد البيت!
قال جُملته الأخيرة، لما رأى نظرات الصبيّ الخائفة المُترددة.. ثوانٍ، وشعر بلِينه..
فأمسك يده، واتجها سوياً تجاه المَّسجد!

*****

بعد انتهاء الصَّلاة، وخُروج أكثريّة المُصلّين خارج المَّسجد..
جَلس "عُديّ" وحوله الصِبية الذين التقى بهم، ومعهم "يُوسُف".. ثم بدأ حديثه بسؤالٍ هادئ وهو ينظرُ لهم:
- هسأل سؤال، واللي عارف الإجابة يرفع إيده بهدوء.. تمام؟

ما إن رأى إيماءات رؤوسهم المُطيعة، حتى سأل وهو يُجيلُ ببصره بينهم:

- مين فيكم يقولي ايه هي أركان الإسلام؟

رفعوا جميعاً أيديهم، فاختار "يُوسُف" من بينهم لكونه جديداً معه.. فأخذ الصبيُّ يَعُدُّ على أصابعه وهو يقول:

"شهادةٌ أنّ لا إله إلا الله، وأن مُحمداً رسول الله.. وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصومُ رمضان، وحَجُّ البيتِ لمن استطاع إليه سبيلاً"..

حيّاه "عُديّ" بابتسامةٍ واسعة، ثم أكمل:

- معنى كدة ايه؟! معنى كدة إني كـ مُسلم، مُطالَب مِني إني أؤمن بالأركان دي، وأنفّذها كمان!
يعني أنا كـ مُسلم، لازم أكون مُحافظ على صلواتي في أوقاتها وأؤديها زي ما سيدنا مُحمد ﷺ، كان بيؤديها!
أنا كـ مُسلم، لازم أصوم رمضان كامِلاً، ومينفعش أبداً أفوّت منه يوم، أو أشرب ماية مثلاً من ورا ماما..
وهكذا في باقي الأركان.

نظر لوجوههم، يتأكدُ أنهم استوعبوا حديثه.. حتى وجدَ صبياً منهم يسأله:

- طب يا عمو "عُديّ"، احنا هناخد ذنوب عشان مروحناش الحج؟ أصل ماما بتقولي بتحتاج فلوس كتيرة، واحنا لسة ربنا مرزقناش!

أنهى الصبيُّ حديثه ببعض الحُزنِ بنبرةِ صَوته، فنظرَ الباقون لـ"عُديّ" باهتمام وقد أثار السؤال فضولهم أيضاً..

فتنهّد هو بثِقَلٍ، وقد أثار سؤالُ الصبيّ شيئاً بداخله.. فقال بنبرةٍ ظهر بها بعضُ الاضطراب والتأثر:

- ربنا يغفرلنا يا "أسامة"، وبإذن الله مناخدش ذنوب! لو رجعنا تاني لأركان الإسلام، هنلاقي ايه؟ "حَجُّ البيتِ لِمَن استطاع إليه سبيلاً"..
يعني اللي يستطيع مادياً، زي أنه يبقى معاه فلوس.. وجسدياً كمان، عشان ممكن شخص يكون كبير جداً في السِن، أو عنده أمراض مش بتخليه يعرف يتحرك.. فهمتوني؟

صمتوا قليلاً ليستوعبوا حديثه، وما لَبث أن وجدهم يَهزُّونَ رؤوسهم بالإيجاب..

فقال سريعاً، بعدما شعر بتململ "يُوسُف"، ورغبته بالذهاب:
- كدة النهاردة خِلص درسنا يا أبطال، واللي عَنده سؤال يأجله للمرة الجاية بإذن الله، عشان أنا مِستعجل دلوقتي.. ذاكروا كويس، وكونوا بارِّين بوالدَيكم!
نقول دُعاء كَفّارة المَجلس؟

فقالوا جميعهم بصوتٍ واحد: "سُّبحانكَ اللهم وبِحَمدك.. نَّشهَدُ ألّا إله إلا أنتَ.. نستغفركَ ونَتوبُ إليكَ"!
قام بعدها "عُديّ" مِن مجلسه، وهو يمدُّ يده لـ"يُوسُف" يُمسكُ بِها.. ثم حَيّا الصِبية، وخرج من باب المسجد بخطواتٍ أقرب للهرولة!

*****

في نفس الوقت، كانت تِلكَ الفتاةُ الناريّةُ تَدورُ في صالة الشَّقة بتوترٍ وعصبيّة..
ما لَبثَت أن صاحت مرةً أخرى بغيظ:
- مش فاهمة هو راح فين كدة! قولتله مليون مرة متبعدش.. خليك قُريب.. لو احتاجت حاجة نادي عليا!
لكن مفيش فايدة، أدينا دلوقتي مش عارفين هو فين!

نظرت لها والدتها بنظراتٍ لم تَخلُ مِن توتّر وقلق، وهي تَقول لها:

- يمكن راح يصلي مع اللي كان بيلعب معاهم!

زفرت الفتاة الهواء، وهي تردُّ عليها بينما تتجه لغرفتها:

- الصلاة خِلصت يا ماما من تِلت ساعة.. أنا هنزل أدوّر عليه تاني!

صمتت الأم تماماً، فعلى كُلٍّ هي لن تستطيع اللحاق بها بهذا الكُرسيّ المُقيّد لها!

رأتها تخرج من غرفتها مُجدداً، وقد ارتدت عباءة سوداء اللون، وقد ألقت على رأسها حجاباً بشكلٍ فوضوي..

لم تنتبه لرقبتها التي تظهر، ولا لشعرها الأسود، الذي يأخذُ حُرّيته في الخروج للعالم.. فكُلُّ همها الآن، أن تبحثَ عن ذلك المَفقود!

*****

وعلى الجانب الآخر، حيث اقترب "عُديّ" من البِناية التي يقطُن بها "يُوسُف" مع أسرته الصغيرة، وقد بدأ الصبيُّ يشعرُ براحةٍ مع مُرافقه..

كيف لا، وهو "عُديّ".. مَحبوبُ أطفال الحارة، وأخيهم الأكبر..
والصَّديقُ الذي يأمنُ الآباء، بصُحبته لأبنائهم!

- يلهـواي! حرامي خاطِف الـوَاد!
التفتَ "عُديّ" بسُرعةٍ تجاه الصَّوت العالي الذي تَلا الشهقة النسائية..
ما لَبثَ أن عَقد حاجبيه بصدمة شديدة!
فقد كان الخِطاب يقصده هو!

*****

2- امرأةٌ غاضِبةٌ جِداً!

كثيراً وقتُ الغضب، لا نرى ما نحنُ غاضبون من أجله!
بل نَرى ماضينا الذي دُعِس، وأحلامنا التي تهتّكت!

*****

كان الموقفُ مُحرِجاً وسخيفاً بحقّ!

فقد ذُهل الواقفون مما تقوله على "عُديّ".. بينما هو يُمسكُ بيد "يُوسُف" وقد وقف بمكانه كمن أصابته صاعِقةٌ لا تُبقي ولا تَذَر!

تقصده هو؟! هو خاطِفُ الصَبيّ، الذي تصرخُ وتصيحُ عليه!

وما تزالُ الفتاةُ تستنجدُ بأهل المنطقة، وهي تُحاول سَحب "يُوسُف" من يده بلَوعة:

- الحقوني يا ناس! يا عالم! الوَاد كان هيتخِطف من المُهزّق ده!

- مُهزّق! طب مش لو حضرتك فكّرتي بربع جنيه كنتِ هتلاقي الأحداث بتناقض كلامك!

ثم إن حرامي ايه اللي هيخطف طِفل بعد صلاة الجُمعة، ويتمشّى معاه..

إضافةً طبعاً إلى أن الطفل ده بيتكلم ومُستمتع جداً وهو مَخطوف!

قالها "عُديّ" بنبرةٍ ساخرةٍ مُغتاظة، وهو يُسلّمها الصبيّ، ثم يَعودُ أدراجه وهو يهزُّ رأسه على تلك الفتاة المَجنونة..

مُتحدثاً مع نفسه عن: "البلاوي اللي بتتحدّف على الواحد"!

تارِكاً إياها خَلفه وهي تغلي بغضبٍ من تصرّفه البارِد.. وما لبثت أن صرخت به بحِدّة، قائلةً:

- أنتَ يا أستاذ، اقف عندك وقولي "يُوسِف" كان بيعمل ايه معاك؟!

رفع "عُديّ" حاجبيه بصدمةٍ من جُرأتها، أكُلُّ ذلك لأجل أخيها الصغير!

بينما كانت امرأةٌ بجانبها تُقنعها أنه أستاذ "عُديّ" صديقُ الأطفال، ويستحيلُ أن يؤذي بَعوضة!

ولكن "عُديّ" تنهد وأجابها بهدوء يُبرر ما حدث.. وهو يُحاوِل قدر المُستطاع غَضَّ بصره عَمّا ظَهر من رقبتها وشَعرها:

- يا آنسة والله أخو حضرتك كان بيصلي معايا الجُمعة، وبعد الصلاة قعدنا نتكلم شوية.. وأخو حضرتك موجود اسأليه، وبرضو اللي كانوا في المسجد معانا، والأطفال اللي كانوا معاه..

وابقي حضرتك اسألي عن مِسيو "عُديّ الجَمّال"، وألف مين يقولك هو مين في الحارة بلا فَخر!

ثم استأذن منها، ولكنه قبل أن يرحل.. اقترب من سيدةٍ في سِنّ والدته، جارته في العمارة.. ثم همس لها بشيء، ورحل عائداً لمنزله وهو يأخذُ نفساً، ثم يُخرجه بثِقَل!

أما تِلكَ السَيّدةُ التي همس لها، فقد اقتربت من الفتاة بهدوء، وربّتت على كتفها وهي تُعدّلُ لها حجابها حتى لا يظهر منها شيءٌ كما أخبرها "عُديّ"، وقالت لها بهدوء:

- متتعصبيش يا بنتي، إنما أنتِ اسمك ايه؟

- "رِيتاچ"!

نطقت بها الأخرى بنفادِ صبرٍ استشعرته المرأة، ولكنها أكملت رُغم ذلك:

- اسمك حِلو! المُهم، مش عايزاكِ تتعصبي يا بنتي، أستاذ "عُديّ" ده مفيش حد هنا في الحارة ميعرفوش، ومفيش طفل مبيحبوش!

أومأت لها "رِيتاچ" علامة التفهّم، ثم أحكمت الإمساك بيد "يُوسُف" وهي تقول بين أسنانها بغيظ:
- وعاملّي فيها شيخ، وهو أصلاً بتاع فرنساوي.. شيوخ آخر زمن!

ثم نظرت تجاه ذلك الذي يسيرُ مَعها بخَوف وتوتر، قائلةً بحِدّة:
- لو خليتك تنزل الشارع تاني، أبقى كلاون!

*****

- مين بقا البِتّ المِسلوَعة اللي كانت عمّالة تسرسع زي العِرسة دي؟!

ما إن فَتَح "عُديّ" باب الشَّقة، حتى اصطدم بحديث والدته السَّاخِط ذاك!
ضحك بشدّة، وهو يُغلقُ الباب بقدمه.. ثم اقترب مِنها قائلاً بمرح:

- ما شاء الله، للدرجادي الأخبار بتوصل بسُرعة؟

تأففت بضجر، فلم تَكُن بمِزاجٍ رائقٍ لمُزاحه، بعد ما وصل لها مِن أخبار.. فقالت بحنق وهي تتجاهله:
- مجاوبتش عليا، البِتّ دي كانت بتزعق ليك ليه؟!

- استهدي بالله يا ماما، دي كانت بتزعق مع نفسها أصلاً! سوء تفاهم، كانت فاكرة إني خاطِف أخوها.. لسة جُداد بقا وميعرفوش ابنك كويس!

وقبل أن تُطلِق والدتها سُباباً ودعواتٍ على الفتاة، يجعلهما يُذنبان..
استأذن "عُديّ" من والدته حتى يخلُد قليلاً للنوم، قبل مَجئ طَلبة الثانوي، الذي يُعطيهم الدَّرسَ الخُصوصيّ!

*****

دخلت "ريتاج" الشَّقة، وهي تُتمتم بكلماتٍ غير مفهومة لـ"يُوسُف"!

بالأحرى، فقد كان ما يشغلُ ذِهن الصَبيّ بتِلكَ اللحظة، أين سيختبئ من بَطش تِلك الناريّة التي تصطحبه!

- حبيب قلب "مروة"، كُنت فين قلقتنا عليك!

قالتها المرأة الكبيرة، وهي تَجرُّ بيدها عجلتيْ كُرسيّها المُتحرك..

ركض "يُوسُف" نحوها بابتسامة، مُتحدّثاً بحماسٍ سعيد:

- عارفة؟ أنا النهاردة رُحت صلّيت الجُمعة، واتعرفت على عمو "عُديّ"!

عارفة كمان؟ بعد الصلاة، عمو "عُديّ" قالنا حاجات حلوة في الدّين، وأنا جاوبت معاه صح!

اتسعت ابتسامة الأخرى.. وهي تمسحُ على شعره وتحتضنه بحنان ولُطف!

كُلّ ذلك، كان تحت عينين عسليّتين، كانتا تشتعلان غيظاً!

هنا، ولم تتمالك "ريتاج" نفسها، فصاحت بتهكّم:

- متنساش المرة الجاية تروّح معاه، عشان المرادي معرفش يخطفك كويّس!

- على فكرة مكانش هيخطفني! هو وعدني أنه هيوصلني البيت بعد الصلاة، وكان بيوصلني فعلاً!

قالها "يُوسُف" بصوتٍ علا بغير قصدٍ منه، يُدافع عن صديقه الغائب..

فصاحت هي بعصبيّةٍ وغضب:
- وهو أي حد بيوعِد بحاجة، بيوفّي بيها؟!!

"مستحيل تكون في وَعيها!"
هذا ما تمتمت به المرأة الكبيرة، وهي تستمعُ لنبرتها المليئة بالقَهرِ والانكسار الذي يَحويه قلبُها!

سقط قِناعُ الثباتِ والجبروت الذي كانت ترتديه، وظهر وجهها الحقيقيّ!
فتاةٌ ضعيفةٌ، تَكذبُ بشأن كونها قويّة!

سقطَ قِناعها، وسقطت معه على الأريكةٍ بوهنٍ.. تَبكي بحُرقةٍ، وقد تصاعدت شهقاتها عالياً!

وقف "يُوسُف" وقد آلمه قلبه لمنظرها الحزين، فاقترب منها وهو يُربّتُ على كتفها بلُطفٍ.. قائلاً بخفوت وهو لا يفهمُ بعدُ سبب بُكائها المُفاجئ:
- أنا آسف إني خليتك تعيّطي!
لَفّت "ريتاج" ذراعيها حول جسده الصَّغير، تضمّه بقوّةٍ.. وتعتذرُ له!

تشعرُ بالذَّنبِ تِجاهه، وتتساءل!
لِماذا؟!
ما الذي اقترفته لتُقابَل بالخُذلانِ والحَنثِ بالوعود!

ومِّمَن!
مِّمن كان أحبَّ إليها من ذاتها!

*****

3- مِسيو الشيّخ!

سُبحانَكَ اللهم رَبَّنا
تُنجي عِبادكَ

بالليلِ نُذنِبُ ذَنبنا
وبالنِّهار تُنزِلُ أستاركَ

غُفرانكَ اللهمَّ رَبَّنا
اغفِر لجميعِ عِبادِكَ

*****

في شَقَّة "عُديّ"، حيثُ أفاقَ مِن نَومه، واستحمّ.. ثم ارتدى ثياباً صيفية مُكونة من قميصٍ قُطنيٍّ باللون الرماديّ، وبِنطالٍ باللون الأسود، وصفَّف شعره الأسود الكثيف بعناية.. ثم جلس على الأريكة باسترخاء، ينتظرُ وفودَ طلبته..

ربع ساعةٍ، وسمع جرس الباب يرنّ، تلاه دُخول ثلاثة شبابٍ، وإلقائهم السَّلام عليه.. قبل أن يتَّخذوا أماكِنَهم على الكراسي..

- امّال فين زميلكم الرابع، عَيّان ولا ايه، مقاليش حاجة؟!

ابتلعوا ريقهم جميعاً، قبل أن يستلم واحدٌ مِنهم قيادة الحَديث، قائلاً بنبرةٍ مُتلعثمة:
- أصل يا مِيسو، هو يعني..
هنا، وابتسم "عُديّ" باتساعٍ وقد فَهِم ما يَدور جيّداً!

فهذا الشابُّ الذي تغيَّب، هو ذاته الذي نصحه "عُديّ" في المرة الفائتة عن حُرمانيّة حديثه مع الفتيات!
يَبدو أن الفَتى لم يُعجِبُه الأمر، فلجأ لتركه نهائياً..

عقد الثلاثة حواجبهم، وقد شعروا بالدَّهشة تتملّكُهم حين استمعوا لضحكات "عُديّ" التي ارتفعت..
ما لَبث مُعلِّمهم أن تراخىٰ بمَجلسه بعدما كان مُعتدلاً.. ثم بدأ حديثه قائلاً بنبرةٍ أقرب للتهكّمِ:
- ايه يا شباب، عيب عليكم! فاكريني ابن امبارح ولا ايه؟! ببساطة، زميلكم ده أنا نصحته نصيحةً ما، لأني مُستحيل أقول ايه هي.. ايه اللي حصل؟ هوب هو معجبتهوش النصيحة.. بس كدة؟ إطلاقاً، هو طِلِع من عندي لأني قِفِل ومُعقَّد، ومش فَرفوش ولطيف زي ما هو عايز!

ثم صمتَ ثوانٍ يأخذُ أنفاسه، وهو يُجيلُ بصره بين الثلاثة يَرى أثر حديثه على وجوههم المَصدومة، من كيفيّة معرفته لذلك الأمر.. فأكمل هو بهدوء، وهو يعودُ بجسده للأمام حتى يكون قريباً من الطاولة التي تفصلُ بين أربعتهم:

- مُشكلتنا إننا بنبقى عايزين اللي يطبّلنا على غلطاتنا.. أو على الأقل مينبّهناش أنه ده غلط! غير كدة هيبقى وِحش وقِفل ومكلكع!

ومُشكلتنا برضو إننا بنتعامل مع الذنوب كأنها تجربة! "ايه ده، معوقبتش يبقى اشطا أكمّل في الذنب! ايه ده، ربنا ابتلاني، يبقى هسيب الذنب ده مؤقتاً كدة لحد ما ربك يفرجها".. نسأل الله العافية والله يا شباب!

ثم تنهّد بعُمقٍ، وهو يفتحُ الكتاب الذي أمامه ويبدأُ بالشرح لهم، حتى لا يُضيع وقتهم أكثر من ذلك..

*****

بعد ساعتين وبضع دقائق، وبعد انتهاء "عُديّ" من الشرح، أو امتحانهم..
ظلَّ "عُديّ" جالساً باسترخاءٍ على الأريكة، بينما يجمعُ طلبته حاجياتهم..

إلا أنه لاحظ التردد الواضح، لواحدٍ منهم.. حتى أن زميله صاح بتساؤل:

- ايه يا عم، أنتَ سرحت! مش يلا عشان نمشي؟!

ولكن الآخر أجابه بهدوء:

- بُص، استنوني تحت.. أنا هسأل المِسيو على حاجة كدة وجاي!

هَزَّ زميله رأسه بالإيجاب.. وما إن خلا المكان إلا من "عُديّ" وطالِبه.. تحدث الأخير ببعض التوتر:

- كُنت عايز آخد رأي حضرتك في حاجة خارج المادة.

أشار له "عُديّ" برأسه باهتمام، وقد ارتسمت على ثغره ابتسامةٌ هادئة..

فقال الشاب بعدما تنهّد:

- أنا عارف أنه لِسة بدري شوية على تفكيري ده، بس أنا كُل ما بقولهم في البيت إني بفكّر أدخل كُلية معينة هما مش حابينها، يقعدوا يقولولي إنها ملهاش لازمة، أو ملهاش مُستقبل كويس.. فـ يعني أنا كنت حابب حضرتك تديني رأيك!

اتسعت ابتسامة "عُديّ" أكثر، وقد شعر بالسعادة أن هناكَ من يرغبُ برأيه، بل ويُقدّره أيضاً!

أخذ "عُديّ" نفساً، وأخرجه بهدوء قبل أن يقول:

- مبدأياً، هو التخطيط لمُستقبلك ده مش شيء له وقت مُعين، إطلاقاً!

ثانياً بقا، موضوع الكُلية.. أنا بس هوجّهك لكام حاجة مُهمة لازم تعملها..

١- إنك تعمل اللي عليك في المُذاكرة، بحيث أياً يك نتيجتك ايه، تبقى مُتأكد إنك سَعيت بما فيه الكِفاية.

٢- ادعي ربنا يختارلك الخير، لأنه مهما كُنت حابب الكُليّة، أو شايف إنها جميلة.. ربنا ﷻ، وحده العالم بالخير ليك.

٣- ولنفترض يا عَمّ أنه جاتلك كُلية مش حابباها؟! هتفضل تبكي على اللبن المَسكوب، ولا الصح إنك تاخد كورسات في مجالات مُختلفة، ومش عيب أصلاً إنك تشتغل شيء تاني غير شهادتك.

استمع الشابُّ جيداً لحديث "عُديّ"، قبل أن يشكره بحفاوةٍ على مُساعدته بترتيب أفكاره.. وبعدها جَمع حاجيته وخرج من المنزل براحةِ بال..

*****

تساقطت الأيّامُ، كتساقطِ أوراق الشَّجر في فصل الخَريف..
حتى مَرَّ أسبوعٌ كامِل، وأتى يومُ الجُمعة التالي!

- قوم يا ابن الموكوسة، شوف اللي بيسأل عليك، قوم يضنايا!

فَتح "عُديّ" عينيه ببعض النُّعاس، وهو يُجيبُ والدته بعدما جلس على السَّرير:
- ليه بس يا ماما تشتمي نفسك، حصل ايه؟!
حرّكت الأم شفتيها بحركةٍ سوقيّةٍ تنمُّ عن السخرية، وهي تُجيبه بتهكّم:
- حصل ايه؟! أنتَ يا واد مالك ومال البِت المِسلوَعة دي!
عقد حاجبيه بشدّة، ورفع خُصلات شعره بأصابعه وهو يقول بعدم فهم:
- بِت مين يا ماما، هو أنا عُمري كَلّمت بنات؟! فيه ايه أنا مش فاهم حاجة!

- البِتّ اللي اتخانقت معاك الأسبوع اللي فات! أم "رانيا" جارتنا بتقول إنها عمّالة تزعق في الشارع، وحالفة توديك قسم الشرطة!

*****

4- صَّواعِقُ لا تُبقي ولا تَذَر!

بعضُ الصَّدماتِ كحدِّ النَّصلِ تقتُلُنا
أين الرَّحمةُ، وهاذي الحيّاةُ خَدّاعة!

*****

مُجرَّدُ جُملةٍ، ألقتها والدته بوجهه، ولَكنّ لها ذات تأثير القُنبلة فَتكاً!
ما إن تذكّر من تقصدُ أمه بالـ"بِتّ"، حتى شعر بانقباضةِ صدمةٍ بقلبه!

ماذا فعل هذه المَرّة، ليصلَ الأمرُ لقِسم الشُّرطة.. أهذه الفتاةُ مَجنونةٌ!
بالطَّبعِ هي كذلك، وإلا لِمَ تفعلُ به هكذا دونَ وجه حقّ؟!

كانت والدته تنظرُ إليه بشفقةٍ لا تَخفى على أحد!
تنظرُ لحيرته وشروده بألمٍ يعتصرُ قلبها من تِلكَ الفتاة، التي أقلُّ ما يُقالُ عَنها.. أنَّها ذات مرضٍ نفسيّ، أو عقليّ!

جلست بجواره على السرير، وهي تُربّتُ على فخذه قائلةً بنبرةٍ حانية:

- قوم يبني، أنا مُتأكدة إنك معملتش حاجة.. وهي تلاقيها واحدة مَجنونة ربنا يعافينا!

هزَّ رأسه بالإيجاب، وهو يقول بخفوت:

- هي أكيد كدة، وإلا ايه اللي هيخلّي واحدة طبيعية تبلّغ عن شخص بدون ما يعملّها حاجة!

ثم تنهّد، واستأذن من والدته وهو يقوم من سريره:

- أنا هلبس وأنزل أشوف الحكاية.

- وأنا رِجلي على رجلك يا بني، أما أشوف البِتّ اللي عاملة نِقرها من نقرك دي عايزة ايه!

*****

● قبل ذلك بساعة..

كان الصغيرُ "يُوسُف" بغرفته، يرتدي ثيابه ويُصففُ شعره.. ولِحظّه السيء، لم يستمع لنِداءات "ريتاچ" عليه!

ثوانٍ، ووجدَ باب غُرفته يُفتحُ بقوّة، وهي تصيحُ بتأفف:
- يا بني عَمّالة أنادي عـ.. ايه ده؟ أنتَ رايح فين كدة؟!

تردد ثوانٍ، قبل أن يُخبرها بحماسٍ طُفوليّ:
- بجهز عشان أروح صلاة الجُمعة مع عمو "عُديّ"، عمو "عُديّ" قالنا امبارح إن يوم الجُمعة عيد للمُسلمين ولازم نلبـ..

شعرت بغضبٍ إثر ذِكر اسمه، فقاطعت الصبيّ بحِدّة:
- هو مفيش غير سي زفت ده في حياتنا؟! يا حبيبي افهم، هو مش صاحبك ولا حاجة!

- "ريتاچ"!
صاحت بها والدتها بصرامة، وهي تدفعُ كُرسيّها المُتحرّك إلى جانب "يُوسُف".. ثم قرّبت الصَبيّ مِنها بحنانٍ بعدما رأت نظراته الدّامعة..

وقبل أن يخرج من الغرفة، همست في أذنه بشيء بنبرةٍ لطيفة.. ثم وجّهت نظرها تجاه ابنتها قائلةً بقوّة:
- ايه يا بِنت بَطني.. هتخيبي ولا ايه؟ الراجل سُمعته زي الجِنيه الدَهب وأنتِ مُصممة تكرّهي الواد فيه؟!

تهاوَت "ريتاچ"، جالسةً على سرير "يُوسُف".. ثم أخرجت تنهيدةً حارقةً من رئتيها وهي تقول بنبرةٍ ظهر بها اضطرابها الداخليّ:

- مُستحيل يكون "عُديّ" ده بيحبه لله فـ لله كدة! حاسّة إنها خِطة، عشان الزفت بِخطف "يُوسِف" زي ما حاول قَبل كدة!

ابتلعت الأم ريقها، فهي تتفهّمُ سبب خوفِ "ريتاچ" المُستمِر على الصَبيّ..

حتى وجدت ابنتها تقفُ قائلةً بحِدّة:

- وربي لأروح أشوف سي زفت ده عايز ايه من "يُوسِف"!

وخرجت بخُطىً مُسرعةً، تجاه غُرفتها.. ولم تترك حتى فُرصةً لوالدتها، التي أخذت تُنادي عليها بقلق.. وهي تُحاوِل الإسراع من حركة كُرسيّها:

- "ريتاچ"، يا بنتي متقلقينيش عليكِ.. يارب اهديها يارب!

*****

● عودةً للحاضِر..

حيثُ أنهى "عُديّ" ارتداء ثيابه بسُرعة.. ثم نزل على درجات السُلَّم وهو يُهرول.. حتى وصل لباب العمارة..

- فين يا أم "رانيا" البِتّ اللي عايزة الحَرق دي؟!

كانت هذه من والدته، وهي تقفُ بجواره بعباءتها السَّوداء البسيطة..

فأشارت لها السيّدةُ المَعنيّة، قائلةً:

- هي دلوقتي قاعدة عند أم حمادة في المَحل بتهدّيها.. حكم كُلّه عارف إنها جديدة في المكان ومتعرفش أستاذ "عُديّ" كويس.

ظَلّ "عُديّ" واقفاً بموضعه، يعقدُ ذراعيه أمام صدره، ويأخذُ أنفاسه ببعض الأسى مِمّا يحدثُ له!

إلى أن انتبه لجارتهم، عِندما سَمعها تقول له بنبرةٍ مُشفِقة:

- معلش يا ضنايا، اللي ميعرفك يجهلك!

البِتّ "رانيا" بنتي شاطرة أوي في علم النفس ده..

بتقولي إنه ممكن يكون حصلها موقف قديم زمان!

أنا يخويا مبفهمش في الحاجات دي، بس..

لم يستمع لباقي حديثها، الذي أخذت تمدحُ ابنتها فيه.. فقد شَرَد عقله عِندَ أهم نُقطة قالتها!

رُبّما فعلاً ما يجعلها مُتحفّزةً تجاهه دائماً، هو موقفٌ قديمٌ حدث لها، جعلها لا تستطيعُ الوُثوقَ به!

"يُخطئ الآخرون في اختياراتهم، ويُصبحون ضحايا لمُضطربين نَفسيّاً.. فنتحمّلُ نحنُ رُدودَ أفعالٍ ليست مُوجّهةً لنا في الأصل!"

أخرج "عُديّ" تنهيدةً بثِقَل، وأخبر والدته أن تأتي معه لمتجر جارتهم، حتى يُسوّوا الأمرَ بهدوء..

خمسُ دقائق من السَير، بعدها كان "عُديّ" يقفُ أمام المتجر، يستمعُ لوالدته التي كانت تُسلّمُ على جارتها.. ثم بدأت تتحدثُ بحنقٍ واشمئزازٍ واضحَين لـ"ريتاج"!
أما الأخرى، فقد انتظرت انتهاء والدة "عُديّ" من حديثها، حتى قالت باستهزاءٍ، وهي غافلةٌ عن ذلك الذي يقفُ بالخارج:
- وهو الشِّيخ المُحترم، مش بيعرف يتكلم ويدافع عن نفسه ولا ايه.. عشان يبعتلي سِتّ تتكلم بالنيابة عنه؟!

*****

جُملةٌ مُستهزئة، ألقتها بوجه والدة "عُديّ" وهي لا تدري أنه يقفُ بالخارج يستمعُ لكُلِّ شيء!

لم يتحمّل "عُديّ" استهزاءها به، وقبل أن تقول والدته أي شيء، اقتحم المتجر وهو يقول بصرامةٍ وبعض الحِدّة:

- لحد دلوقتي أنا مراعي إن حضرتك سِتّ، ومش واخد راحتي في الكلام.. بل ورضيت إن ماما هي اللي تتكلم بالنيابة عَنّي!

ثم صمت ثوانٍ، قبل أن يُلقي نظرةً مُشمئزة عليها وهو يُكملُ بتهكّم:

- لكن واضح إن لِسان حضرتك بيُنبّئ إن اللي قدامي لا تمت لصنف النِّساء بأدنى صِلة!

بُهتت "ريتاج" من رَدّه، واتّسعت عينيها العسليتين من رَدّه اللاذع، وإهانته لها!

فيما وقفت والدته تُلقي عليها نظراتٍ شامتةً!

أكمل "عُديّ" ضَربه على الحديد وهو ساخِنٌ، قائلاً بنبراتٍ هادئة مُتمهّلة:

- الشخص اللي بيتعمّد يُظهر أنه جبروت وقادر، هو أكتر شخص ضعيف وخاوي داخلياً! ونصيحة مِنّي يا آنسة، لو حضرتك عندك مشاكل قديمة طَلّعيني مِنها.. لأنه ببساطة، أنا مليش دَخل، ومش ذَنبي!

وقبل أن يقول أيٌّ منهم شيئاً آخر، سمعوا صوت القرآن يصدحُ من مُكبّر الصَّوتِ بالمسجد..
فشعر "عُديّ" بالحنقِ الشَّديد، أنه حتى الآن لم يتجهّز بعد، أو يقرأ سورة الكهف!

استأذن منهم بفتور، ولكنه قبل أن يُغادر سمع صوت "ريتاچ" تسأله بنبرةٍ مُضطربةٍ، إثر كشفه لها داخلياً:
- برضو مفهمتش، حضرتك عايز ايه من "يُوسِف"؟!

كان هذا أغبى شيءٍ قالَته وهي تتصنّعُ القوة والثبات.. إلا أنّه أجابها ببرود دون أن يلتفت:
- ايه اللي مُمكن شاب كبير زيي، يحتاجه من طفل معداش التسع سنين؟!
لو حضرتك مش واخدة بالك، لكن "يُوسُف" اللي بيحبني، وعايزني أكون صديقه.. وأكيد أنا مش هرفض شيء زي ده لأوهام في دماغ حضرِتك!

وصمتَ لثوانٍ، ثم أنهى حديثه قبل أن يتحرك، بسُّخرية واضحة يُذكّرها بموقفها السَّابق:
- متخافيش، لسة موصلتش لمرحلة أكل الأطفال.. أنا بخطفهم بس!

بعد انتهاء صلاة الجُمُعة، جلس "عُديّ" قليلاً يذكرُ الله بهدوء.. وقد شَرَد ذهنه لا إرادياً فيما حدث له صباح اليوم، وفيه بَلائه المُسمّى..
هو حتى لا يعلمُ اسم تلك المُصيبة التي ابتُلي بها!

وما كادَ يقوم من مجلسه، حتى يُغادر.. إذ وجدَ بعض الصِبية يركضون نحوه بحماسٍ وابتسامةٍ واسعة..
وقبل أن يصيحوا، أشارَ لهم بيده وابتسامته الجميلة أنهم بالمسجد..
امتثلوا لأمره، قبل أن يُحيَّيهم.. خصوصاً "يُوسُف" الذي اقترب منهم باستحياءٍ وحرج..

- عمو "عُديّ"، هو حضرتك متضايق مننا؟

قالها صَبيٌّ منهم، فابتسم "عُديّ" قائلاً بلُطف:

- لأ، ليه بتقول كدة؟

أجاب "يُوسُف" تِلك المرة ببعض الأسى ظهر بصوته:

- عشان حضرتك عَدّيت من قدامنا، ومسلّمتش علينا ولا ضحكت معانا زي كُل مرة!

تفهّم "عُديّ" سبب قوله، فاقترب منه ماسحاً على رأسه بحنان.. قبل أن ينظر بوجوه الصِبية قائلاً بهدوء:

- الأكيد إني مش متضايق منكم، ممكن بس مكنتش مركّز وأنا ماشي.. أنا آسف! وبرضو اعذروني، النهاردة مش هقدر أدّيكم الدَّرس.

لاحظ علامات الإحباط التي ارتسمت على وجوههم، فوعدهم أنه سيلعبُ معهم مساءً.. ثم أخذَ يُحدّثهم بلُطفٍ لدقائق، قبل أن يستأذن منهم ليُغادِر..

انتبه أن "يُوسُف" يُمسكُ بكَفّه بإحكام، فلم يُمانع.. بل على العكس، رحّب جِداً بذلك!

وبعد دقيقتين من السَّير الصامت، تحدّث "عُديّ" بمرح، يُذيبُ الجليد المُتكوّن:

- مالك بقا يا بطل، متضايق ليه؟

رفع "يُوسُف" رأسه تجاه الآخر، حيثُ كان "عُديّ" طويل القامةِ، أقرب للنحول.. وقال بعد تردد:

- هو حضرتك زعلان مِنّي؟

عقد "عُديّ" حاجبَيه، وقد ابتسم باتّساعٍ قائلاً:

- طبعاً مش زعلان منك! أنتَ عملت حاجة تزعّلني؟!

هزَّ الصبيُّ رأسه بنفي، وأكمل بتوتر:
- ومش هتسيبني وهنفضل صُحاب؟

زفر "عُديّ" هواءً ثقيلاً من صدره، فقد فهم أن تلك الأفكار وليدة حديث تلك الناريّة، شقيقته!
إلا أنه أجاب "يُوسُف" بسُرعة، وابتسامةٍ صادقة:
- بإذن الله مش هسيبك، وهنفضل صُحاب يا عمّ!

أخرج الصبيُّ تنهيدة ارتياح، ويكأن حديث "عُديّ" له بمثابة وعدٍ كُتِب بالدَّم، وحُفِر في القَلب!

ابتسم "عُديّ" بسعادةٍ، حين لمح ابتسامة الآخر الواسعة، قبل أن يسمعه يقول بنبرةٍ مُضطربةٍ حزينة:
- ياريت كان عندي أب بيحبني زيك!
توقّف "عُديّ" عن السير، وانقبض قلبه بقسوةٍ وعُنف..
ويكأنّ يداً من حديد تقبضُ عليه!

بالفعل، هو لم يرَ حتى الآن أبوَيه! أين هُما، ولِمَ يقولُ الصبيُّ ذلك؟! تفهَّم سبب خوفِ أخته المُستمرِّ عليه!

عَنَّف الدمعة التي كادت تفضحه أمام الصبيّ، قبل أن يأخذه داخل عِناقٍ قويّ قائلاً بنبرةٍ مُتلعثمةٍ:

- وأنا يا عمّ أخوك الكبير، وبحبك من غير حاجة.. ولو عايز نشيل الألقاب خالص أنا معنديش مانع!

ابتعد عنه "يُوسُف" وهو ينظرُ إليه بعينين زرقاوتين لامعتين من التأثر، وقد افترَّ ثغره عن ابتسامةٍ واسعة!

وحين استأنفا السَّير مُجدداً، أكمل "عُديّ" بنبرةٍ بها بعضُ السُّخرية لم يستشعرها "يُوسُف":
- وبعدين يا عمّ ربنا يحفظلك أختك، ويحفظك ليها!
توقف "يُوسُف" عن السَّير، فتوقّف معه الآخر وهو يتعجّبُ من وقوفه المُفاجئ.. وما كادَ يتحدّث، حتى سأله "يُوسُف" بعدم فَهم:
- أختي؟! بس أنا معنديش أخوات أصلاً!

عقد "عُديّ" حاجبيه بعد استيعاب!
من المُفترض ألا يسأله، حتى لا يشعر الصبيُّ بحُزنٍ أو إحراج.. إلا أن "عُديّ" لم يستطع تمالك فضوله وصدمته وهو يسأله ببعض التردد:
- الآنسة اللي اتخانقت معايا يوم الجمعة اللي فاتت دي مش أختك؟! امّال ايه، خاطفاك!

أنهى "عُديّ" جُملته ببلاهة، وهو ينظرُ لـ"يُوسُف".. فارتفعت ضحكات الأخير بقوّة، مما أثارَ الشَكَّ بقلب "عُديّ" عن ثبات القُوى العقلية لتلك العائلة!

إلا أن صبره لم يَطُل، حيثُ ألقى الصبيُّ بوجهه صاعقةً لا تُبقي ولا تَذر.. قائلاً بهدوءٍ وابتسامةٍ واسعة:

- هو ممكن شكلها يبان أصغر من سنها، بس دي مامتي.

*****

5- أنقِذ أُمّي!

وَحينَ أخبرني أن لا مَكانَ لي بقلبه..
سَمعتُ صوتَ انكسارِ شَيء!
أعتقدُ أنَّ الصَّوتَ آتٍ مِن قَلبي!

*****

مُجرّدُ جُملةٍ قالها الصَبيُّ، شعر بعدها ويكأنَّ دَلواً من الثلج، قد سُكِب فوقَ رأسه!

ولكن لِمَ الدَّهشة؟! أمٌ غاضِبةٌ حانِقةٌ تخافُ دائماً على ابنها من الغُرباء..
هذا هو السِّياقُ الطَّبيعيُّ، غير ذلك الذي اخترعه عقله، أنها مُجرّدُ أختٍ له!

ولكن، أين والده؟! هو لم يَرَ رجلاً مَعه من قبل!
كاد "عُديّ" أن يتهوّر ويسأله، إلا أنه تراجع في اللحظة الأخيرة ينهرُ ذاته!
حديثُ الصَبيّ يُوحي أن والده قاسٍ معه.. لُربّما كان غير موجودٍ، أو..

- عمو "عُديّ"، مش هنمشي؟!

قالها "يُوسُف" ببعض التعجّب، فما يزالان واقفَين في الشارع!

زفر "عُديّ" الهواء، وقد بدأ عقله بتجميع الأحداث ورَبطها.. ويكأنها لوح "Pazzel".. ونظر للصغير قائلاً بابتسامة ويكأن شيئاً لم يكن:

- أيوة طبعاً، عشان لما تقول لمامتك إنك نازل تلعب معانا، توافق.

أومأ الصبيُّ بحماسٍ، بعدما تذكّر أمر اللعب.. سائراً مع "عُديّ" بخُطىً مُسرعة..
ولم تمرّ ثلاث دقائق، حتى وصلا للعمارة التي يقطنُ بِها "يُوسُف"..

*****

أما في الأعلى، ومن خلف زُجاج النَّافِذة.. كانت "ريتاچ" واقفةٌ تُراقِبُ ابنها وهو يُودّع صديقه الكَبير، بانفتاحٍ وابتسامةٍ واسعةٍ نادِراً ما تتواجدُ على ثغره..

ثم حوّلت بَصرها، تنظرُ بتركيزٍ لتعابير وجه "عُديّ"..
مُحاوِلةً اصطياد أي شيء مُريب!
لم تَجد سِوى ابتسامةٍ صافيةٍ ترتسمُ على ثغره، ونظراته الحَريصة التي تُتابعُ ابنها..

إلى أن اطمئن لدخوله المَبنى، ثم انطلق بخطواتٍ ثابتة، وهو يغضُّ طَرفه عن أي فتاةٍ أو امرأةٍ تسير!

وما كادَ قلبها يُطمئنها أن شخصاً كهذا، يَتّقي الله في الضَّعيفين، لا يُمكنُ أن يَكون سيئاً!
حتى شعرت بصفعةٍ حادةٍ من عقلها، يرفضُ تَصديق الظَّواهر!

وما يلبثُ أن يُذكّرها بزعيم الأوغاد الذي تزوّجته.. فقد كا..

- "ريتاچ" يا بنتي الجرس بيرنّ!
صاحت بها والدتها تُنبّهُها، فأفاقت الأخرى من شرودها الذي أخذَ دقيقتين، وقامت بسُرعةٍ تفتحُ لـ"يُوسُف"..
وفي قرارةِ نفسها، تعزمُ على الأخذِ بنصيحة والدتها.. وأخذه بحضنها والاستماع له، حتى لا ينفرَ منها!

فتحت له، وهي تأخذُ نَفساً عَميقاً.. قبل أن تبتسم بلُطفٍ وتأخذه بحِضنها، وهي تسأله:

- صليت الجُمعة يا حبيبي؟ أشطر "يُوسِف"!

لم يتوقّع هو رَدّةُ فعلها تِلك، خصوصاً بعد مِزاجها الحادّ الذي لازمها طِوال الأسبوع.. إلا أنه فَرح بفعلها، وسارع بلفّ يده حول خِصرها، يُبادلها العِناق اللطيف..

ثم ابتعد عنها، وبدأ يحكي لها وهما يتجهان للجلوس بغرفة المعيشة، عن الفترة التي قضاها بالخارج..

ولم تلبث حروفه أن بدأت تأخذُ مَجراها، ليبدأ بالتحدث عن صديقه وقُدوته، "عُديّ"!

- عارفة يا ماما؟! قالي أعتبرُه أخويا الكبير، ووعدني كمان إننا هنفضل أصحاب علطول.

قالها "يُوسُف" بابتسامةٍ واسعة، فتجهّم وجه "ريتاچ" إثر ذِكر اسمه.. وغاصَ قلبها داخل أضلعها أكثر، مع جُملته التي قالها!

{""أنتَ مُمكن تتغير يا "شهاب"؟!""
قالتها ببعض الخجل والهدوء، فابتسم الآخر ابتسامة ذئب، قد أوشَك على الوُقوع بالفريسة.. قبل أن يُجيبها بتلاعب:
"مُستحيل يا "ريتا"، أنا هفضل أحبك علطول!"}

انتبهت على صوت "يُوسُف" وهو يُخبرها بنبرةٍ راجية:
- ماما، أصحابي وعمو "عُديّ" هينزلوا بالليل يلعبوا كورة، ممكن أنزل معاهم؟ ووعد، هخلّص الواجب قبل ما أنزل!

ابتلعت ريقها..
ما زالت تشعرُ بتلك الغُصّة داخل حلقها، والتي تستمرُّ بالانتشار حتى وصلت لقلبها!

لم تستطع الردّ على الصبيّ، فكأنّ تلك الذِكرى جثمت على أنفاسها.. إلا أنها أومأت برأسها علامة الموافقة، وهي تمسحُ على شعر صغيرها بحنان..

كانت ردّة فعله قمةٌ في اللطافة، حيثُ قبَّل وجنتها بسعادةٍ.. ثم نزل من فوق الأريكة، ذاهباً لغُرفته ليُذاكر..

ابتسمت بتأثر، وهربت دمعةٌ ساخِنةٌ من عينيها..

رُغم أنه وَرِث بعض الملامح من والده.. إلا أنّ من رحمة الله بها، أنه لم يأخذ شيئاً من خِصالِه القاسية شديدة الجَفاء!

أسندت "ريتاچ" ظهرها للأريكة، تُريحه..
تعلمُ جيّداً أنه وقتُ إعداد الغداء، ويجبُ أن تبدأ به حتى تستيقظ والدتها، وتجده جاهزاً..

ولكنها أقنعت ذاتها، وخَدّرتها بأنه لا بأس بتجرّع بعض الذِكريات.. والنَّدمِ عليها!

ذِكرىٰ،
فالثانيَةْ..
فدموعٌ بَعدَهُما جاريَةْ!

هكذا شعرَ عقلها بالتَّعب، وشعر بالشَّفقة عليها.. فقرر مَشكوراً أن يُريحَ ذاتَه، ويُريحها قبله من انقباضِ ذلك النَّابضِ أيسرها!

كانت تُمسكُ هاتفها، بعدما أنهت ترتيب المنزل..
أرسلت لها صديقةٌ، شيئاً مُضحكاً.. فرُغماً عنها ضحكت بصوتٍ عالٍ، وهي مُنكبّةٌ على الهاتف تُرسلُ رَداً لصديقتها..

صوتُ صفعةٍ دوّى بالمكان،
ولم تَكُن تِلكَ الصَّفعةُ إلّا مِن أعزِّ البَشَر على قَلبها!

أم تَقولُ "مَن كان" بعد تِلك الصَّفعة؟!
فنظراته المُخيفةُ تِلكَ لم تَعُد تَعيها حقاً!

جَذبها من شعرها بقوّة، مُقرّباً إياها منه ليهمس أمام وجهها بنظراتٍ مُحتَقِرة:
- بتعملي ايه يا ***** على الفون؟ بتكلمي واحد تاني صح؟! طبعاً، ما أنتِ شاطرة في كدة أوي!
نظرت له بصدمة، وقد بدأت الدموع تنزلُ من مُقلتيها تحرقُ خدّيها!

لا تَدري، أدموعُ الألم من جذبه شعرها هكذا.. أم هي دماءُ قلبها التي تنزفُ من صدمتها مِنه!

أهكذا يراها؟!
امرأةٌ لا تؤتمن!
بعد كُلِّ ما فَعلته لأجله؟!

كادت تردُّ عليه ردّاً لاذعاً، تسترجعُ كرامتها التي أهدرها هو بكُلّ سهولة.. إلا أنَّ صوتها لم يخرج..
كعادة الأحلام!

نادت على "ريتاچ"، حتى تُساعدها بنَقلها من السرير إلى الكُرسيّ.. إلا أنّها لم تُجِب عليها!

ثوانٍ، ووجدت "يُوسُف" يركضُ لها قائلاً بابتسامة:
- هي ماما نايمة، أساعدك يا تيتة؟

ولم يترك لها الفُرصة، حتى اقترب منها ومَدَّ لها ذراعه وجسده تتكئ عليه.. بعدما قَرَّب الكُرسيّ من موضع نزولها..

وما إن استقرّت على الكُرسيّ، واحتضنت حفيدها تشكره.. سألته بهدوء:
- ماما نامت من امته يا "يُوسِف"؟

هَزّ الآخر كتفيه بعدم مَعرفة، وهو يُجيبها ببساطة:
- مش عارف، أنا جيت من صلاة الجُمعة وقعدت معاها شوية.. وبعد كدة دخلت عشان أعمل الواجب، ولما ندهتي، أنا شوفتها وهي نايمة على الكنبة.. متخافيش هي عايشة، شوفتها بتتنفس!

أنهى الصبيُّ حديثه بتلك الجُملة، جعل الجَدّة لم تستطع تمالك نفسها، وضحكت بشدّة على حديثه الغاية في الصَّراحة!

- تعالى طيب نشوف هناكل ايه؟

قالتها الجَدّة وهي تتحركُ للخارج، فلحق بها "يُوسُف" وهو يسألها:

- مش هنصحّي ماما تعمل الأكل؟

أجابته الجَدّة أن "لا".. ثم مرّت أمام غرفة المعيشة، حيثُ جلست "ريتاچ"..
أو بالأحرى، حيثُ نامت!

نظرت لها بشفقةٍ، بعدما رأت ارتجافات جسدها البسيطة..
وتمتمتها بأشياء لم تستطع سماعها..
ولم تَكُ تِلك التَمتَماتُ، سِوى: "أنا مش رخيـ.صة! والله كنت بكلم صاحبتي!"

تنهّدت الجَدّةُ، وهي تشعرُ بقلبها يؤلمها على ابنتها!

كاد "يُوسُف" يذهبُ تجاه والدته، ولكن الجَدَّة أخبرته بسُرعة:

- لأ لأ! يلا عشان نجهّز الأكل لحد ما "ريتاچ" تِصحى.

استمع لأمرها، ثم سار معها تجاه المطبخ وهو يسألها بفضول:

- هنعمل ايه يا تيتة؟

ثوانٍ، وتذكّر قائلاً:
- بس أنا مش بعرف أعمل الأ..

قاطعته جدّته، وهي تضحكُ بيأسٍ على ثرثرته:
- هنعمل بيتزا، أنتَ هتجهز المكونات اللي هتتحط فوق..
وأنا هعمل العَجينة، اتفقنا؟
شعر بالحماس يتدفّقُ لعروقه، فهزّ رأسه علامة الموافقة.. ثم شرعَ يستمعُ لها بإنصات واهتمام..

*****

في اليومِ التالي، كان "عُديّ" جالساً بمنزله، بعد انتهاء درس اللغة الفرنسية الذي أعطاه للشباب.. إلى أن يؤذن المؤذنُ لصلاة المَغرب..

وجدَ عقله يشرُد تلقائياً بـ"يُوسُف"، وهو يُفكّر كم أن هذا الصغير يحملُ حُزناً ما بداخله.. رُغم هدوئه الظاهريّ!

خمسُ دقائق، ووجدَ طرقاتٍ سريعة قويّة على باب المنزل.. عقدَ حاجبيه، وهو يسيرُ لمعرفة من الذي يطرقُ هكذا.. وقد أتت والدته من الدَّاخل بفزعٍ تتساءل عن كُنه الطّارق..

- عمو "عُديّ" الحق ماما، عمّالة تصرّخ وتعيّط جامد وأنا مش عارف أعمل ايه!

قالها "يُوسُف" بتلعثمٍ، وهو يبكي بحِدّة.. ما إن فَتح "عُديّ" الباب!

*****

6- زَوجتي!

يُقالُ عن الرَّجلِ "زوجُها"، وعن المرأة "زَوجُه".. وقَبلَ وضعِ النِّقاطِ على الأحرف، كانت العَربُ تقول: "روحُها"، و"روحُه"!

وأقولُ أنا: ذو القلبِ القاسي، لا يؤتمنُ على روحِه!

*****

شعر "عُديّ" بقلبه ينقبض بشدّة، فأخذ الصبيُّ بحضنه بسُرعة وهو يكبتُ دموعه!

هل عانى الصبيُّ وحده فَزِعاً خائفاً؟!
هل بكى كثيراً، هل تركَ والدته بمُفردها ليأتي لإخباره؟
هل..

- يلا يا بني بسُرعة نروح نشوفها.

هكذا قالت والدة "عُديّ"، بعدما ارتدت عباءتها وحجابها على عَجلة..

سارَ ثلاثتهم، رُغم شعور "عُديّ" بالإحراج الشديد..
لم يذهب معهم إلا ليكون كَتفاً آمناً لـ"يُوسُف"..
فما زالَ صغيراً جِداً ليكون وحده!

ألم يُنصّب نفسه أخاه؟! إذاً فليَكُن على قَدر الأخوّة!

كان "يُوسُف" يركضُ في الشارع، وخلفه يُهرول "عُديّ" ووالدته..

دقائق، ووصلوا للعمارة.. فطلبت والدة "عُديّ"، من الصَبيّ أن يسبقها، ثم لحقته بأسرع ما استطاعه عُمرها..
أمّا "عُديّ"، فقد كان يُقدّمُ قَدَماً، ويؤخرُ الأخرى بكثيرٍ من الحرج..

بالطبع هو لن يدخل، ولكن سيقفُ بعيداً عن مدخل الشَّقة، قريباً من الممر المؤدي إليها.. حتى يُطمئن صديقه الصَّغير..

*****

● قَبل مَجيء "يُوسُف"..

كانت "ريتاچ" تجلسُ بجوار ابنها، تُساعده بحلّ الواجبات المدرسية..

ثوانٍ، وتركته يُكملُ بمفرده، وأمسكت هي هاتفها تتصفَّحُ رسائلها..

- ماما أنا مش فاهم السؤال ده!

قالها "يُوسُف" بحيرة، فأغلقت هاتفها واضعةً إياه على الطاولة.. ثم أمسكت الكتاب وهي تقرأ السؤال..

وإثر ذلك، رنَّ هاتفها بمُكالمةٍ ما!

نظرت نظرةً عابرةً للمُتصل، ما لبثت أن عقدت حاجبيها ببعض التوتر عِندما رأت رقماً غيرُ مُسجّلٍ لديها يتصلُ!

نظرت للصبيّ، الذي كان ينظرُ لها مُنتظراً أن تردّ على الهاتف.. وقالت له بتوتر:

- "يُوسِف" معلش، ممكن تروح عند تيتا!

رُغم فضولِ الآخر لمعرفة كُنه المُتصل، إلا أنه استمع لقولها..

ما إن خرج من الغرفة، حتى أجابت "ريتاچ" على الاتصال واضعةً الهاتف فوق أذنها بصمت وترقّب.. إلى أن انقبض قلبها بقسوةٍ وعُنفٍ جِرّاء بدءِ الطرف الآخر الحديث، قائلاً بنبرةٍ مَليئةٍ بالخُبث:

- الجَميل أخباره ايه؟ موحشتكيش؟!

شعرت بكمّ رهيبٍ من الغضب والاشمئزاز ينتشران بين عروقها.. إلا أنها أجابته بنبرةٍ حادّة:

- عايز ايه يا ***** أنتَ، هو احنا مش اتطلقنا خلاص؟!

أخرج الآخر صوتاً نافياً مُستنكراً من شفتيه، مُجيباً عليها ببرود يستفزّها:

- تؤ تؤ تؤ، كِدة برضو تشتمي جوزك حبيبك! مكانش العشم ولا سنين الاستهبال اللي..

قاطعته بصوتٍ عالٍ حادٍّ تستنكرُ ما سمعته:

- نـــعـم! أنتَ بتخرّف بتقول ايـه؟!

أجابها هذه المرة بقسوة وجفاء:

- زي ما سمعتِ كدة! أنا ردّيتك، يعني رِجعتي مراتي.. اجهزي بقا أنتِ و"ياسّو" عشان هآجي آخدكم النهاردة..

ثم صمتَ لثوانٍ يهمسُ بأذنها بشيءٍ حقيرٍ مثله، قبل أن يُنهي المُكالمة قائلاً بنبرةٍ ساخِرة:

- مع السّلامة يا.. مراتي!

*****

كان "عُديّ" بإمكانه سماعُ صراخها الحادّ.. ويكأنها فقدت شخصاً عزيزاً عليها!

صُراخٌ هستيريٌّ، يتخلله حديثها الذي يُظهر مَدىٰ احتراق قلبها:

- أنـا بـكـرهه! ازاي يـردّنـي على مزاجه كِدة! ازاي بعد ما خَـدعني وأذاني وظَلمني، يـقـولي بكُـل بسـاطة إني رِجعت مراته؟! بـكـرهه، بـكـرهه!

وما لبث أن سمع شهقاتٍ حادةٍ عالية، توحي بانهيارها وبُكائها العنيف!

وبجانبها سَمع صوت والدته تواسيها بهدوء، وصوت امرأةٍ أخرى تتحدثُ بنبرةٍ مُنكسرة!

رُغم أنها كانت حادّةً معه أكثر من مرة، إلا أنه شعر بالشفقة عليها.. وقد فهم من حديثها أن زوجها قد رَدّها لعِصمته بعد طَلاقهما..
تنهد بثِقل، فما باليد حيلة.. على الأقل لن يعرض مُساعدةً إلا إذا استدعىٰ الأمرُ ذلك!

ولكن حواسّه كُلّها انتبهت، حين قالت والدة "يُوسُف" بقهرة ونبرةٍ باكية:
- يا طنط ده حاول يخطف "يُوسِف" قبل كدة عشان يهددني بيه! فيه أب يعمل كِدة في ابنه؟!

حينها، شعر "عُديّ" بالغضب الشديد يندفعُ لعروقه عِندما استمع لقولها!
لم يحتمل أكثر، وتقدّم تجاه الباب يرنُّ الجرس..
ثوانٍ وفتح له "يُوسُف"، فنظر للصغير بدموعٍ أبىٰ أن يجعلها تنزل.. ثم جذبه داخل عِناقٍ قويّ يُواسيه!
ويكأنه يعتذرُ له بهذا العِناق عن قسوة العالم.. وقسوة الأقربين!

ابتعد عنه، قائلاً بنبرةٍ مُتحشرجةٍ إثر غُصة حلقه:
- عرّفهم إني هدخل، بعد إذنكم طبعاً!

فَهم الصبيُّ ما يقصده "عُديّ"، فأومأ برأسه علامة الإيجاب.. قبل أن يذهب لإخبار والدته وجدّته حتى ترتديان لباساً يليقُ بوجوده..

خمسُ دقائق، قبل أن يفتح "يُوسُف" الباب الذي وارَبه قائلاً لصديقه بنبرةٍ خافتة:

- اتفضّل يا عمو.

شعر "عُديّ" بمدىٰ انكسار الصبيّ وحُزنه، فبالأحرى من الذي سيتحمّلُ تلك الأحداث المشحونة؟!

دلف "عُديّ" للشقّة وهو يُنزلُ بصره للأرض بأدبٍ، قائلاً بهدوء:

- السلام عليكم يا أم "يُوسُف"، بعتذر إني جيت في وقت زي كدة.. بس غصب عني سمعت كلام حضرتك، وأنا بعرض مُساعدتي!

وقبل أن تتحدث "ريتاج" بأي كلمةٍ لاذعة إثر غضبها، تحدّثت الجَدّة بلهفة وقد عَلمت أنّ هذا هو "عُديّ" الذي يتحدّثون عنه:

- تعالىٰ يا بني اقعد، كَتّر خيرك والله.. اقعد وأنا هحكيلك!

اتجه "عُديّ" للجلوس بجوار والدته، التي ربّتت على فخذه بابتسامةٍ فخور بابنها.. قبل أن تتحدّث الجَدّة تحت نظرات ابنتها المُستنكرة:

- بُص يا ابني، خُلاصة الكلام بما إنك شيخ وكدة.. المَحروق جوزها كان مطلّقها قبل كدة مرتين، وهو النهاردة اتصل بيها وقالها أنه رَدّها.. هو يعني كدة ردّها فعلاً، ولا ينفع متقعش؟

أنهت حديثها بنبرةٍ حائرة مُنكسرة، فتنهّد هو وقد انقبض قلبه!

ما يزالُ كما هو، أمور الطّلاق والخِلافات الزوجيّة تكادُ تُزهِقُ روحه!

إلا أنه تنهّد، وقد ابتسم لها قائلاً بصوتٍ هادئ رخيم:

- هو مبدأياً أنا مش شيخ، أنا مُجرّد شخص عادي بحاول أقرّب من ربنا جل جلاله..

ندخل في المُهم! اه للأسف، لو الزوج رَدّ زوجته بدون علمها، أو رضاها أو رِضىٰ وَليّها.. فالردّ بيقع، وبترجع مراته!

وقبل أن يتركَ لهم فُرصةً ليقولوا شيئاً، أكمل بحزم:
- وده مش كلام "عُديّ"، ده كلام عُلماء وفُقهاء كِبار زي ابن تيمية!
بس ايه الشَرط لِكدة، إنها تكون لسة في عِدّتها.. وعِدة المُطلّقة، ثلاثة حَيضات.. أو ثلاثة أشهر للتي لا تَحيض!

عَمَّ الصمتُ بينهم، فقد كانت المرأتان تستوعبان حديثه..
ثوانٍ، ولمعت عينا "ريتاچ" قائلةً وقد بدأ الأملُ يتسللُ لقلبها:
- لَحظة، أنا افتكرت حاجة! "شهاب" طلّقني من حوالي تلت شهور ونُص.. أيوة أنا مُتأكدة!

حمحم "عُديّ" بحرج، يُعدّلُ على حديثها ويذكّرها قائلاً بحياء:
- حضرِتك متنسيش الشرط التاني!

عقدت "ريتاچ" حاجبيها بعدم فهم، تطلبُ منه توضيحاً أكثر.. فحمحم "عُديّ" ناظراً لوالدته أن تُنقذه من الموقف، وتوضّح للأخرى..

فأسرعت والدته تقوم من مكانه، وتتجه للجلوسِ بجانبها تهمسُ بأذنها أن تتأكد أن في تلك الشهور الثلاثة، لم تَحِض أقل من ثلاث حيضات!

احمرّ وجه "ريتاچ" بشِدّة، وقد تذكّرت ما قاله لها منذُ قليل.. ثم قامت من مجلسها تدخلُ غرفتها لتتذكّر على راحتها..

ورُغماً عنها يشرُدُ قلبها مع طريقته الهادئة المُراعية.. قبل أن تُصفع من عقلها الذي يرفضُ الأمر!

وفي تلك الأثناء، حيثُ جلس "عُديّ" بحرج يُريدُ أن يعود لمنزله حتى يقوم بالتحضير للحصص التي يُعطيها يوم غدٍ بالمدرسة..

اقترب منه "يُوسُف" على استحياء يجلسُ بجواره.. فمدّ "عُديّ" ذراعه حول جسد الآخر الضئيل، يضمّه له بحنانٍ شديد يفتقدُ كليهما له!
قبل أن يرفع "يُوسُف" جسده قائلاً بنبرةٍ حزينة:

- أنا مش عايز ماما وبابا يرجعوا لبعض! بابا كان بيضربها جامد يا عمو، وكان بيضربني أنا كمان وبيقولي إنه مش بيحبّني!

بَكىٰ الصغيرُ إثر تلك الكَلمة بتأثرٍ وانكسار، وقد تمنّىٰ بداخله أن لو كان "عُديّ" هو والده!

أما "عُديّ"، فقد حاول بكُلّ ما يملكُ من قوّةٍ كي لا تنزل دموعه.. وهو يضمُّ "يُوسُف" له بقوّة، يحتويه ويحتوي خوفه وانكساره!

قد شعر في تلك اللحظة بكمّ المَقتِ والغضب تجاه ذلك الرجلِ.. هو حتى أحقرُ من أن يُطلَق عليه كلمة "رَجُل"!

- ماما قالتلي إن بابا هو السبب في إن تيتا تقعد على كُرسي كدة!

قالها "يُوسُف" بنبرةٍ باكية، وصوتٍ مَكتومٍ لاحتضانه "عُديّ"..
وما كاد يفيقُ من الصاعقة التي ألقاها الصبيُّ بوجهه، حتى سمع صوت جرس الباب يرنّ بإصرارٍ غريب مَقيت!

شهقت الجَدّة قائلةً بخفوت:
- يالهوي، ده تلاقيه "شهاب".. استرها يارب!
احتدّت نظرات "عُديّ"، وهو يُبعدُ "يُوسُف" عنه بلُطفٍ ويقوم من موضعه..
وقبل أن يتجه للباب، قال لوالدته بقوّة:
- ماما، "يُوسُف" ووالدته وجدّته أمانة معاكِ، لحد ما أشوف الباشا ده عايز ايه!

ثم تحرّك بثباتٍ تجاه الباب، وما إن فتحه، حتى قابله وجه "شهاب" الذي ظهرت الصدمة على ملامحه لوهلة.. قبل أن يقول بحقارة ونظراتٍ خبيثة:

- أنا جيت في وقت مش مُناسب ولا ايه؟!

*****

7- مَصفوعان من الحياة!

سَكَتَ عَنْ الكلامَ.. فَظنّوه صامِتاً، ساكِناً.. هادئاً!
ولَكِنَّهم -المساكِين- لا يَسمعون ضَجيجَ عَقله!

*****

لم تَكن نبرةُ "شهاب" بالبريئة، ولم يكن معنى جُملته نقيّاً البَتّة!

فقد كان "عُديّ" سيحاول التحدّث معه بتعقّل، إلا أن الآخر بطعنه في شرف طليقته، وشرفه.. أفقده كُلّ ذرّة تعقّل وهدوء، مُخرجاً شياطين غضب "عُديّ"!
فأجابه بحِدّة:

- ما تحترم نفسك يا جَدع أنتَ!

أزاحه "شهاب" بذراعه، مُتجاهلاً حديثه كُلياً، وقال بوقاحة وهو يدخلُ للمنزل:

- امال فين السنيورة اللي عملالي فيها الشَريفة الخَضرة و..

قاطع تكملة حديثه، جذبةُ "عُديّ" لذراعه بقسوة، قائلاً بقوّة:
- اخــرس! دي أنضف مِنك ومِن أمثالك!

ابتسم الآخر بسخرية، قائلاً بتهكّم غيرُ مُراعٍ أنه يتحدّثُ عمن كانت زوجته، وعن أم ابنه بتلك الطريقة أمام الغُرباء:
- يا عم ما تقول إنها لَفّت عليك، عشان كدة بقا هي زعلانة إني رَدّيتها!
صفعةٌ قويّة حادّةٌ دوّى صوتها في المَكان، قادِمةٌ من يد "ريتاچ"!

احتدّت عينا "شهاب" وكاد يتجه ناحيتها، يرفعُ يده عليها.. إلا أن "عُديّ" أحكم الإمساك به قائلاً بأذنه بشماتةٍ واضحة:
- هتمدّ إيدك على سِت ولا ايه؟ هتخيب!

انطلق سُبابٌ لاذع وقحٌ من فم "شهاب"، تجاه "ريتاچ" وذلك الذي يُمسكُ به من الخلف، وهو يُزمجرُ ويتحرّكُ بعُنفٍ حتى يتحرر من إمساك "عُديّ" به!

أما والدة "عُديّ"، فأسرعت تحتضنُ "يُوسُف" وهي تضعُ يديها على أذنه حتى لا يسمع تلك القذارات..
والجَدّة تجلسُ بمكانها ترتجفُ بخوفٍ مما ستؤول إليه الأمور، وهي تدعو بداخلها أن يمرَّ الموضوع بسلام!

- أنا مش مراتك يا حقير أنتَ، سامعني؟! عِدّتي خِلصت يا "شهاب"!

قذفت "ريتاچ" تلك الكلمات بوجه من كان زوجها، بانفعالٍ وصوتٍ حادٍّ لم يخلُ من تهدّج..
ورُغماً عنه، شعر "عُديّ" براحةٍ تلمسُ روحه بعد جُملتها تلك..

وفي تلك الثانية التي شردَ بها عقلُ "عُديّ"، دفعه "شهاب" بحِدّة للخلف، جاعلاً إياه يفقدُ توازنه لجزءٍ من الثانية..

قبل أن يقتربَ ذلك الوغدُ من "ريتاچ" مُحاولاً الإمساكَ بذراعها وهو يقولُ بتوعّد:

- سهلة، نروح للمأذون نكتب الكتاب تاني.. هي شُغلانة؟! لسة مطلّقتكيش التالتة يا بنت "مروة"!

ركضت "ريتاچ" بخوفٍ، ولم تَدرِ أين تختبئ.. حتى هداها قلبها أن تقف وراء "عُديّ" تحتمي به..
ولم يُكذّب هو خَبراً، فوقف كالسدَّ المَنيع أمامها، يمنعُ الآخر من تهوّره قائلاً بهدوءٍ حاول استجماعه:

- لو سمحت يا أستاذ "شهاب" ممكن تهدىٰ عشان نتكلم بعقل شوية؟! احنا مش رجال كهف عشان نمسك ونضرب بعض!

لم يُركّز "شهاب" مع حديثه، فقد كان غضبه قد وصلَ لذروته وهو يراها تحتمي بالغريب بتلك الطريقة، منه!

أكمل "عُديّ" حديثه وقد انتهز فُرصة صمته، ظاناً أنه استمع له:
- مفيش شَكّ أنه حضرتك ليك مرة أخيرة تسترجعها بعقد جديد، ومهر جديد.. بس لأن المدام عِدّتها خِلصت يبقى رأيها مُهم، ومن غيره عقد القران ملوش أي تلاتين لازمة!

ثم التفت برأسه لليمين قليلاً، يسأل تلك التي خلفه بهدوء إن كانت موافقةً على الرجوع له..
لا يعلمُ لِمَ بداخله تمنّى بشدة أن ترفض، لأجل "يُوسُف" على الأقل!
إلا أنه ليس له حقُّ التدخّل، فهذه حياتهما وحدهما..

وقبل أن ينزلق بتفكيره لـ"يُوسُف" حين رآه يجلسُ مُحتضناً والدته بنظراتٍ خائفة مُنكسرة.. سَمع صوت "ريتاج" تقول بنبرةٍ حازِمة:
- لأ مش موافقة إني أرجعله!

لم تعلم هي من أين اكتسبت تلك القوة، وذلك الحَزم.. رُبّما من احتمائها بـ"عُديّ"!

وعِند تلك النُقطة، ورُغماً عن عقلها.. شعر قلبها بالاطمئنان والسَكينة أن هناكَ من يحميها..
فأسرعت بسُرعةٍ تنهرُ ذاتها وتسبّها لوصولها لتلك النُّقطة من التَّفكير!

وإثر إجابتها أيضاً، شعر "يُوسُف" براحةٍ تتخللُ روحه، وأخذ يحمدُ الله أنها لم توافق.. وكذا شعرت والدة "ريتاچ"..

ابتعد "عُديّ" من أمام "ريتاچ" لتذكّره أن ذلك الأمر لا يجوز، غير أنه وقف قريباً منها ومن طليقها إذا ما فعل ذلك الأخير أي فعلٍ غبيّ!

وما إن ابتعد "عُديّ" من أمامها، حتى شعرت أنها تُركِت وسط مَعركةٍ، بعدما كان هناكَ جُنديٌّ يحرسها، ويذبُّ عنها الأهوالَ والمخاطِر..

وقبل أن تنتبه لنظراتِ "شهاب" التي لو كانت تؤثر، لأحالتها لرمادٍ تتقاذفه الرِّيح..

سمعت صوت "عُديّ" يوجّه حديثه إليه، قائلاً بنبرةٍ مُتمهّلةٍ قويّة:

- أظنّ سمعت هي قالت ايه! ياريت بقا منشوفش عيونك الزرقا دي تاني في الحارة.. ووالله، والله لو عِرفت إنّك فكّرت بس بينك وبين نفسك تؤذي حد فيهم، لأكون أول واحد يقفلك!

بدأت ترتسمُ ابتسامةً مُتهكّمةً خبيثةً على ثغر "شهاب"، وهو يلتفتُ ببصره تجاه "يُوسُف" يرميه بنظراتٍ خبيثةٍ تُنبئ بأفكاره الشيطانية التي لا توحي أن ذلك الذي يقفُ والده!

ارتعد "يُوسُف" وهو يُشدد احتضانه بوالدة صديقه، علّه يشعرُ بالأمان!
ولم ينتبه لذلك، إلا "عُديّ".. الذي شعر أن تلك النَّظرة توحي بمُخططاتٍ يبرأ منها إبليسُ ذاته.. فاتجه ناحية "شهاب"، يُمسكُ ذراعه بإحكامٍ قائلاً بنبرةٍ ذات معنى:

- شرّفت يا أستاذ "شهاب"، ياريت متكررش الزيارة تاني!

وقف "شهاب" أمام باب الشقة المفتوح، قبل أن يُغلقه "عُديّ" بوجهه.. وسأله وهو يُلقي عليه نظراتٍ مُستهترة:

- ألا قولي يا عَم الشيخ أنتَ، متعرَّفتش باسمك الكريم! أصل يعني مينفعش نبقى لسة متخانقين ومنعرفش اسم بعض!

ابتسم "عُديّ" ابتسامةً جانبيّة، وهو يرفعُ حاجبيه بسخرية.. قبل أن يقول:

- محسوبك مِسيو "عُديّ الجَمّال"، ابقى اسأل أي عيّل صُغيّر، وهو هيدلّك عليا.

ثم أغلق الباب بوجه الآخر، قاطعاً أمامه أيُّ فُرصةٍ للردّ عليه!

وما كاد يلتفتُ بجسده، حتى اصطدم بجسد "يُوسُف" الصغير الذي احتضنه بشدّة وهو يقول بنبرةٍ باكية:

- شكراً إنك خليته يمشي، وشكراً إنك خليته ميرجعش لماما!

لَفّ "عُديّ" ذراعه حول جسد الصَبيّ، قائلاً بابتسامةٍ وإحراج:

- الشُكر لله، بس مامتك هي اللي رفضت.. روح اشكرها هي!

ابتعد عنه "يُوسُف"، واتجه لوالدته يحتضنها ويهمسُ لها بالشُّكر..

فبَكَت "ريتاچ" رُغماً عنها وهي تنظرُ لـ"عُديّ" قائلةً بنبرةٍ مُتلعثمة:

- مش عارفة أقولك ايه والله يا أستاذ "عُديّ"، أنا آسفة إني ظلمتك قبل كدة.. واللي عملته النهاردة ليا أنا وابني، ده دين في رقبتي ومش هعرف أسدده!

لم يستمع "عُديّ" لجُلّ حديثها، فقد كان عقله شارِداً يُفكّرُ بطريقةٍ يحمي بها "يُوسُف" من والده!

يا للسخرية! بدلاً من أن يكون الأبُ هو الدِّرعُ الحامي، والصَّرحُ المَنيعُ لعائلته من الغُرباء.. يبحثون هُم جاهدين عَمّن يَكونُ بتِلك الصِفات، يحميهم منه!

شعرت "ريتاچ" بالحرج الشَّديد من عدم رَدّه عليها، وكذا شعرت والدته بالغيظ منه..

إلى أن قال مُوجّهاً حديثه لـ"ريتاچ" بحرجٍ شديد، ممزوجٍ بالثبات:

- حضرتك عندك مانع نكتب الكتاب بُكرة بإذن الله؟

*****

اتسعت أعين الجميع لِما قاله.. باستثناء "يُوسُف" الذي عقد حاجبيه لعدم فهمه ما يعنيه "عُديّ"!

تضرّجت وجنتا "ريتاچ" بحُمرةٍ قانية، لم تعتدها هي ذاتها.. ولم تَقوَ على الرَدّ عليه، فيما أكمل هو بذات الثبات ولكن بنبرةٍ ألطف:

- لفترة مؤقتة بس يا مدام، بحيث يبقى ليا الحقّ إني أحميكم.. وبالأخص "يُوسُف"، اللي بالمُناسبة بعتبره زي ابني ويمكن أكتر كمان.. ومُستعد أحميه بعُمري، لأجل إني مشوفش نظرة خوف ولا دمعة واحدة تنزل من عينه!

كان حديثه صادقاً جِداً، ينبعُ من أعماقِ قلبه.. ولأنهم يقولون أنَّ ما يخرجُ من القلب، يصلُ مُباشرةً للقلب!
فقد اخترق كلامه قلب "يُوسُف" ووالدته، جاعلاً إياهما يتأثران بحديثه!

اقترب "يُوسُف" من صديقه، يحتضنه بقوّة، فشدّد الآخر على احتضانه بتملّك وهو ينحني بجسده، يُقبّلُ شعره الناعم..

مَن قال أن "فاقِد الشيء لا يُعطيه"؟! إذاً هو غير سويّ نفسيّاً من قال تلك الحِكمة!

أما الثلاثة نسوة، فقد كُنَّ ينظرن بعيونٍ تلتمعُ تأثراً، لتلك العلاقة التي تربطُ بين فؤادَين، كأفئدة الطَّير.. رِقّةً ولُطفاً وحناناً!

كانت الجَدّةُ تنظرُ لهما بتأثر، وقد تمنّت بقرارةِ نفسها أن توافق ابنتها ولا تعود لمِثل تلك التُّرّهات التي تتفوه بها!

ووالدة "عُديّ" التي تنظرُ لابنها بفخرٍ، مُمتزجٍ ببعض الأسىٰ لِما فعلته الدُّنيا به!

أما عن "ريتاچ"! فقد كانت تنظرُ لابنها مع صديقه بنظراتٍ مُتأثرةٍ، وفِكرٍ شارِد..
تُمعنُ التَّفكير فيما عَرضه عليها!

إنّ كلامه يبدو صادقاً، ونظراته التي تُحيطُ ابنها بكُلِّ حُبٍّ وحَنانٍ، تبدو صادقةً أيضاً!

عَرضُه أيضاً منطقيّ، فتلك أفضلُ طريقةٍ أن تكون بحماية رجلٍ، تربطهما علاقةٌ شرعيّة.. حتى لا يستغلَّ "شهاب" أيّ ثغرةٍ لإيذائها أو إيذاء "يُوسُف"!

حاولت بأقصىٰ قوّتها تَنْحية مخاوفها جانباً، وهي تُركّزُ بأفكارها على شيءٍ واحد!
لقد عاهدت نفسها أن تفعل كُلّ ما يصبُّ في مَصلحة ابنها، لذا ستتخذُ الخطوة الصَّحيحة!

كان "عُديّ" في تلك الدقائق صامتاً، يشعرُ بصراعاتها الدَّاخليّة، ويُقدّرُ أنه فاجأها بالأمر، في وقتٍ غريب!
فكّر لوهلةٍ أنها من المُمكن جِداً أن ترفضه.. وقتها سيتأكدُ أنها غبيةٌ مُندفعةٌ تلك الـ.. تباً، هو حتى الآن لا يعلمُ اسمها!

- أنا موافقة، بس بشرط!

قالتها "ريتاج" بنبرةٍ مُضطربةٍ خجول، فتنهّد الجميع براحةٍ، قبل أن يومئ "عُديّ" برأسه علامة الموافقة وهو يُجيبها ببعض الحَرج:

- موافق على الشرط، ده حقك.. كدة كدة هو زواج مؤقت لحد ما نظبّط الأمور!

احمرّت وجنتاها خجلاً حين فَهم ما ترمي إليه، أما "يُوسُف" فقد كان ينظرُ تجاه "عُديّ" ووالدته.. قبل أن يقول بحماسٍ بعدما سمع كلمة "زواج":

- يعني كدة عمو "عُديّ" هيتجوّز ماما؟! يعني هنسهر مع بعض براحتنا، وأنام جنبه، ويودّيني المدرسة ونخرج في الإجازة!

نظرت "ريتاج" لابنها بصدمةٍ، وعينين كادتا أن تخرجان من مكانهما!
أما عن "عُديّ"، فقد كتم ضحكته بصعوبة على تفكير الصَبيّ الخارج عن المألوف!

اقترب من "يُوسُف" وهو يمسحُ على شعره بحنانٍ، قائلاً بابتسامةٍ صافية:

- وعد بإذن الله نعمل كل ده، وأكتر كمان.. أنا مش وعدتك إننا هنفضل أصحاب؟! وأديني يا عمّ بوفّي بوعدي!

شعر "يُوسُف" بسعادةٍ كبيرةٍ تتخللُ جُنبات قلبه، وظهرت بشدّة على ملامح وجهه النقيّة..

أشار "عُديّ" لوالدته حتى يرحلا، وقبل أن يخرج من باب الشقّة حدّث "ريتاچ" قائلاً بتحذير:

- اقفلوا باب الشقّة كويس، والشبابيك برضو.. ومش لازم "يُوسُف" يروح المدرسة بكرة، منعاً لأي شيء ممكن يحصل!

أستودعكم الله الذي لا تضيعُ ودائعه، السلام عليكم!

أنهى حديثه، ثم خرج بثباتٍ وهو يُمسكُ يد والدته..
تاركاً بالشقّة "ريتاچ" يطرقُ قلبها بين أضلعها من طريقته وهو يؤكدُ على أمانهم..

ثم التفتت لابنها، تأخذه داخل حضنها في عِناقٍ دافئ..
وتبادلت مع والدتها نظرةً هادئة تعني الكثير..

*****

في اليوم التالي، حيثُ كان "عُديّ" جالساً بغرفة المُعلّمين في وقت فراغه من الحصص.. كان ذهنه شارِداً، يُفكّر بجدية..
هل يُخبرُ والدة "يُوسُف" بما تعرّض له، أم يحتفظُ بالأمر لنفسه نظراً لأن زواجه منها لمصلحةٍ فقط!

هو لم يعتد على الخِداع، وإن لم يُخبرها بالأمر سيكونُ أكبر مُخادعٍ حقير، أمام ذاته على الأقل!

*****

انتهى اليوم الدراسيّ بأقل الخسائر له، نظراً لشرود ذهنه أغلب الوقت..

وبعد ساعةٍ من ازدحام الطريق المؤدي لمنزله، نزل من الحافلة العامة، سائراً بخطواتٍ ثابتةٍ تجاه منزله..

وصل بعد عشر دقائق، ثم سلّم على والدته وقَبَّل يدها..
فلاحظت هي فتوره، وتنهّدت بثِقَل!
ليس الأمرُ سَهلاً عليه كما يُحاول هو الادّعاء!

خرج لها بعد نصف ساعةٍ من غرفته، وهو يرتدي قميصاً باللون السماوي وبنطالاً من الجينز.. وصفف شعره الأسود بطريقةٍ هادئة، وارتدي ساعةً بيده..

نظرت له بابتسامةٍ تُحاول إذابة الحُزن الذي يُحيطُ به..
فبادلها بأخرى وهو يقتربُ منها ويُقبّلُ يدها قائلاً بهدوء:
- مش هعرف أخبّي عليها، هبقى وِحِش أوي قُدام نفسي!

تنهّدت وهي تهزُّ رأسها بالإيجاب.. قبل أن يسألها بضحكٍ وقد تذكّر:
- شوفتي ابنك، نِسي أصلاً يعرف اسمها.. واحد رايح يتجوز واحدة ميعرفش اسمها! عجايب والله!

ضحك بشدّة، وضحكت معه وهي تلكزه في كتفه قائلةً له اسمها!

ابتسم لسماع اسمها، ليس سيئاً.. بل هو جميلٌ كـ.. كعينيها رُبّما؟!
أفاقَ من أفكاره، على صوتِ والدته وهي تحثّه على السَّير.. فسار معها، وهو يُخرجُ هاتفه يتّصلُ بمأذونٍ يعرفه جيداً، وهو يتفقُ معه على إشهار الزَّواجِ بالمسجد، حتى يكون صحيحاً..

وبعد دقائق، وصلا للشقّة التي تقطنُ بها "ريتاج" مع أسرتها الصغيرة..
رَنّت والدة "عُديّ" الجرس.. ثوانٍ وفتح لها "يُوسُف" الذي ارتدى لِباساً جميلاً.. ثم دعاهم للدخول وهو يجذبُ يد "عُديّ" بحماسٍ وسعادة..

- ايه عيلة المجانين دي؟! الواد فرحان إني هتجوز أُمه!

همس بها "عُديّ" بسُخرية لوالدته، التي كتمت ضحكتها بصعوبةٍ وهي تتجه لتُسلّم على والدة "ريتاچ"..

جلس الجميع، ومعهم "ريتاچ" التي خرجت وهي ترتدي فستاناً بسيطاً جداً باللون الأخضر..

حمحم "عُديّ"، مُستأذناً منهم أن يتحدث قليلاً مع "ريتاچ" قبل ذهابهم للمسجد..

ابتلع ريقه، وهو يُحاول عدم النَّظر لها قدر المُستطاع.. قبل أن يقول بتوتر:
- أنا عارف إن الموضوع كُلّه على ورق، لحد ما نفكّر براحتنا هنتصرف ازاي مع "شهاب".. بس ولو، مينفعش الأمر يُبنىٰ على خِداع، لِذا..

ثم صمتَ هُنيهةً يستجمعُ كلماته، بينما هي شعرت بالتوتر لِما سيقوله..

قبل أن يبتلع "عُديّ" ريقه، ويقولُ بنبرةٍ مُتحشرجةٍ إثر غُصّة حلقه وألمِ قلبه:

- أعرّفك على نفسي.. اسمي "عُديّ"، مُدرّس فرنساوي في مدرسة ( )..
عندي 35 سنة.. و، وكُنت متزوّج قبل كدة، لكن انفصلنا عشان.. عشان أنا عَقيم!

*****

8- بَعضٌ من المشاعر.. والشَّفقة!

ونَدِمتُ أنّي عرفتُهم يوماً
وقضيتُ عُمري كُلَّه ندمُ!

*****

جَثمَ الصَّمتُ فوقَ أنفاسهما، فما الذي يُقالُ بعد ذلك؟!

شعرت "ريتاچ" بالصَدمة تلسعُ روحها بسياطٍ حادّة..
وتملّكت منها الشفقة تجاهه!

ألذلك هو يُحبُّ الأطفال كأحبِّ ما يُمكن؟!
ألذلك هو يُحبُّ "يُوسُف"، ويخافُ عليه بهذا الشكل؟!
ألهذا هو لم يتزوّج حتى الآن!

آلمها قلبها رغم كُلّ شيء، فقد كانت نبرةُ صوته تُوحي بمدىٰ الانكسار الذي يَحويه قلبه!

- "عُديّ"، أنا رُحت للدكتورة وقالتلي إني سليمة، وأكيد المُشكلة من عندك!

ألقت تلك المرأة جُملتها بوجهه، كالقاذفة.. فاتّسعت عينا "عُديّ"، وآلمه قلبه لقسوتها.. ولم تُمهله شيئاً ليُجيبها، فأسرعت تضربُ بمَجمع قوّتها على روحه، قائلةً بجفاء:
- وأنا بصراحة مش هقدر أستحمل إني ميكونش عندي أطفال، عشان كدة.. احنا لازم نتطلّق!

كان "عُديّ" صامِتاً، يستمعُ لقسوتها.. ويستمعُ لنزيف قلبه وشعوره بالقَهر والخُذلان!

وللحقّ، فهو لم يُمهلها شيئاً.. فألقىٰ بوجهها كلمة الطّلاق ثلاثاً، ثم اتّجه صَوبَ باب الشّقة يخرجُ منها..

انتبه من ذِكرياته، على صوتِ "ريتاج" وهي تقولُ بنبرةٍ مُتهدّجةٍ باكية:
- أنا بعتذر ليك بالنيابة عنها، أنتَ متستاهلهاش!

عقد حاجبيه، وهو يرفعُ رأسه، ينظرُ لعينيها التي تلوّنتا باللون الأخضر الفاتِح.. تزامناً مع دموعها التي تنزلُ كالسَّيل..

ورُغمَ شعوره بالاندهاش، أن تلك التي تأثّرت مِمّا حكاه..
هي ذاتها من تشاجرت معه أكثر من مرة!
إلا أنه أجابها بسُرعةٍ وهو يُحاول جعل نبرته عاديّة:
- متعتذريش، محصلش حاجة.. يلا بقا عشان نروح المسجد؟

سأل بنهاية حديثه، ولم يُمهلها.. فرفع نبرة صوته وهو يُخبرُ الجميع أنهم سيرحلون..
ثم اتفق معهم أن تذهب والدته مع والدة "ريتاچ" و"يُوسُف" لمنزله..

إلى أن يعقدوا القران، ثم يلحقوا بهم..

وبعد ربع ساعةٍ، بعدما أوصَل "عُديّ" والدته مع البقيّة..
أخبر "ريتاچ" أنه سيتقدّمها إلى أن يصلوا للمسجد المُجاوِر..

وما إن وصل للمسجد، حتى وجدَ عَمّه وابن عمّه واقفَين ينتظرانه، كما أخبرهما بالأمس..

أخبر التي معه أن تنتظره ولا تقلق، ثم اقترب منهما يُسلّمُ عليهما.. قبل أن يسمع عَمّه يقولُ بنبرةٍ مُعاتِبة:

- هتتجوّز فجأة وقولنا نعدّيها.. لكن سُكّيتي يا ابن أخويا!

تنهّد "عُديّ" بثِقَلٍ، ثم تحدّث بهدوءٍ ومُراوغة:

- والله يا عَمّي هي الظروف مسمحتش إننا نعزم ناس كتير، ونعمل فرح.. وبعدين أنتَ عارف رأيي في الأفراح!

نظر له عَمُّه بنظراتٍ ثاقبة، قبل أن يتنهّد ثم يُشير لهما كي يتقدّما من المأذون الذي يجلسُ مُنتظراً..

ما إن اقترب "عُديّ" من موضع جلوس المأذون، الذي كان يعرفه من زيجته السابقة.. حتى همسَ له الأخير بأذنه، بنبرةٍ هادئة:

- عَرّفتها طبعاً إنك كُنت متزوّج قبل كدة؟

أومأ "عُديّ" برأسه علامة الإيجاب، قبل أن يسمع المأذون يميلُ على أذنه أكثر ويهمس بجدّية:

- رأيي يا ابني إنك تاخد الموضوع جَدّ، يعني متخليش الموضوع مَصلحة وبس، وبعد انقضاء المصلحة كل

واحد يروح لحاله.. اسمع مِني يا ابني، أنتَ محتاج ليها، زي ما هي محتاجة ليك بالظبط!

ابتلع "عُديّ" ريقه، وهو يُشيرُ للمأذون حتى يبدأ..
بالأحرىٰ هو لم يستمع له وهو يتحدّث، فقد كان عقله يُفكّر تلقائياً بقول المأذون!
معه كُلّ الحَقّ، وإن تناقضت دواخله في ذلك..

مع "ريتاچ" أو غيرها، فهو حقاً يحتاجُ لمَسكنٍ تأوي إليه رُوحه..
وزَوجٌ يسكنُ معها قلبه!

سَمع المأذون وهو يقولُ بنبرته الرَّخيمة:
- **(وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزواجًا لِتَسكُنوا إِلَيها وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ).**

دقائق معدودة، قبل أن يسمعه يُكملُ قائلاً:
- بارَك الله لكما، وبارَكَ عليكما، وجَمَع بينكما في خَير..
ورزقكما الله الذُّريّة الصالِحة، آمين!

كانَ "عُديّ" يؤمّنُ وراءَ الآخر بكُلّ كَلمةٍ، إلىٰ أن وَصَل للجُملة الأخيرة!

شعر بقلبه يتفتّتُ كصخرةٍ أُهيلَ عليها بمِطرقةٍ من حديد!

ابتلع ريقه، ولم يجد إلا أن يَقول "آمين" أكثر مِن مَرّة!

وفي نَفس الوَقت، حين أنهىٰ المأذون حديثه بقَول تِلك الجُملة..
اختلست "ريتاچ" النظر لـ"عُديّ"، فلاحظت نظراته الشّارِدة وملامح وجهه الشّاحِبة.. فشعرت بشفقةٍ شديدةٍ، تجاهه..
ويكأنه طفلٌ يحتاجُ للحنان!

امتدّت يدها بتلقائيةٍ، وكثيرٍ من التردد تُمسكُ بكفّه تضغطُ عليه بمواساة..
وما إن شعر "عُديّ" بكفّها يلمسُ كفّه، انتفض لا إرادياً.. قبل أن يتذكّر أنهما بالفعل متزوّجان، فنظرَ لها لثوانٍ وهو يحاولُ أن يبتسمَ بوجهها..

ثم سلّم على المأذون، واستأذن من عمّه وابن عمّه حتى يُغادرا..

ساعدها على القيام من جلستها بلُطف، قبل أن يسير بجانبها خارجَين من المسجد..

وما إن خرج من المسجد، حتى وجدَ العديد من رجال الحارة، أو أطفالها يقفون أمام المسجد بانتظاره..

زفر "عُديّ" بثِقَل، ففي الواقع لا يملكُ مِزاجاً رائقاً لتلك المُجاملات!
إلا أنه اضطر أن يُسلِّم على الواقفين، وقد استمع طبعاً للعديد من العبارات على غِرار "لِمَ لم تَقُم بإخبارنا"، والكثير من الهمهمات بما معناها "ألم يجد امرأةً غير تِلكَ المُحِبّة للمشاكِل؟!"..

شعر ببعض الحنق يعتريه، فإنها مُنذُ الآن زَوجه، ولن يَقبَل بكلمةٍ تُقالُ بحقّها!
أفلم يُعاهِد الله مُنذُ قليل أنها أمانةٌ لديه؟!

استأذن منهم بأقصىٰ قدرٍ من الأدب، ثم أمسك بكفّ "ريتاج" التي كانت صامتةً طوال ذلك الوقت، لم تتفوّه بكلمة..
سَرَت قشعريرةٌ على طول عمودها الفقريّ، إثر إمساكه بيدها.. فشعرت بالخجل منه، ومن تلك المشاعر التي ظنّت أنها دفنتها مع أول صفعةٍ من "شهاب"!

كان الصمتُ هو السائرُ الثالثُ معهما، كُلٌّ مِنهما شاردٌ بما يَحتويه ذِهنه!

- بقا كِدة يا أستاذ "عُديّ"، تتجوز من غير ما تعرّفنا حتى؟! مكانش العشم ولا الجيرة اللي بينا يا ابني!

كانت هذه من السيّدة أم "رانيا" مِعاتِبة له، ما إن خَطى "عُديّ" و"ريتاچ" بداخل العمارة..

أخرج "عُديّ" تنهيدةً بقلة حيلة.. يشعرُ بصُداعٍ شديد برأسه، فهو لم يَنَم سوىٰ ثلاث ساعات مُنذُ أحداث البارحة!

أما الأخرى، فقد أسرعت تقول بنبرةٍ حاولت جعلها لطيفة:

- ازيّ حضرتك يا طنط، يارب تكوني بخير.

"طنط؟! خمسين عفريت أما يتنططوا في وشك يا بعيدة!"

تمتمت بها أم "رانيا" بغيظ، قبل أن تُجيبها بلطافة مُصطنعة:

- الحمد لله يا ضنايا، بس متقوليليش طنط.. لاحسن أنا بنتي أصغر منك بكتير!

كانت السيّدة لا تُطيقها.. والسبب؟! تظنُّ داخل عقلها أنّها حرمت ابنتها من فرصةٍ عظيمةٍ للزواج بـ"عُديّ"!

لا تعلمُ أن الزوّاج نصيب، ونَّصيبها مَكتوبٌ عِند الله ﷻ!

ابتلعت "ريتاچ" ريقها، وقد شعرت بالضِّيق من إهانة تلك السيّدة لها، بطريقةٍ غير مُباشرة.. وقبل أن تردّ عليها، تحدّث

"عُديّ" بقِلة صَبرٍ وهو يدعكُ جبينه، عَلَّ بعضاً من ألمِ رأسه يذهب:

- و"ريتاچ" بردو مش كبيرة يا طنط أم "رانيا"، ملامحها صغيرة وموضّحة إن سِنّها بردو صُغيّر.. عن إذنك بقا عشان نطلع!

أمسك بكفّ "ريتاچ" مرةً أخرى، ليصعدا السُلّم سوياً حتى لا تشعر بخجل!

لا تشعر؟! هي بالفعل تكادُ تنصهرُ خجلاً، تزامناً مع ضربات قلبها التي تكادُ تفضحها أمام الآخر!
هل يجبُ عليه أن يكونَ لطيفاً ويُدافعُ عنها دائماً هكذا؟!

- شكراً ليك، بس أنا فعلاً مش صغيرة للدرجادي.. أنا عندي 32 سنة!

قالتها ببعض المزاح، وهي تنظرُ له وهو يفتحُ باب الشَّقة..
فأجابها هو بثبات:

- 32 ومش صُغيرة؟! على كدة بقا أنا عجوز بالنسبة ليكِ!

وضعت يدها على فمها تكتمُ ضحكتها، ثم دخلت وراءه الشَّقة بحرجٍ شديد!

كَون كُلِّ شيء تَمَّ بسُرعةٍ ودون تخطيط، جعلها تشعرُ بعدم الراحة إلى حدٍ كبير!

- ماما احنا جينا!

رفع "عُديّ" بها صوته، بينما الأخرى تبحثُ بعينيها عن ابنها..
وما إن سمعت صوت والدة "عُديّ" تُنادي عليهما من الدَّاخل، حتى أسرعت الخطىٰ بعفويةٍ حتى ترى ابنها الذي أوحشها..

إلّا أن "يُوسُف" خالَف توقّعاتها هي و"عُديّ"، حينما وجدته جالساً على الأرض، يلعبُ بألعاب "عُديّ" حين كان طفلاً بمِثلِ عُمُره.. ولم يُعرهما أي انتباه..

قهقهت والدة "عُديّ"، والجَدّة بخفوت.. قبل أن تهمس الأولى لهما:

- مخاصِمكم عشان مخدتوهوش معاكم!

ابتسم "عُديّ" باتساع، قبل أن يسبق "ريتاچ" تجاه صديقه الصَّغير قائلاً بسُخرية:

- "يُوسُف" يا حبيبي أنتَ بجد مستوعب إنك زعلان عشان مروحتش كِتابة مامتك.. مش العكس!

كتمت النّسوة ضحكاتهنّ، وما زالَ "يُوسُف" ينظرُ لتلك اللُعبة بيده، يتصنّعُ عدم الاكتراث لصديقه..

ورُغم أنَّ التَّعب والإرهاق، قد بَلغا من "عُديّ" مَبلَغه.. إلا أنه قال لـ"يُوسُف" بلُطف؛ يُصالحه:

- طب بُص، عشان أنا دلوقتي جَعان نوم.. ايه رأيك تنام جنبي زي ما وعدتك، وأحكيلك قِصة سيدنا "يُوسُف" عليه السَّلام؟!

ذابَ الجليد، وابتسم "يُوسُف" الصَّغير بحماسٍ وهو ينظرُ للآخر بابتسامةٍ واسعة، مما جعل قلبُ "عُديّ" يطرقُ بقوّةٍ بين جُنُباتِ أضلعه.. ثم جذبه يحتضنه بحنانٍ يغمُر قلبه وروحه..

كانت النسوة ينظرن لهما بابتسامةٍ وتأثر، خصوصاً "ريتاچ"، التي أدمعت عيناها وهي لا تذكُر مرةً واحدةً، نادىٰ فيها "شهاب" على ابنه كي يُعطيه قُبلةً صغيرةً، أو حتىٰ يُعلّمه شيئاً!

رأت "عُديّ" يهمسُ بأذن ابنها شيئاً ما، قبل أن يقترب "يُوسُف" منها ويحتضنها بشدّة، تزامناً مع قول "عُديّ" بنبرةٍ فاتِرةٍ مُرهقة:

- خُدوا راحتكم، أنا هدخل أريّح شوية.. وأنتَ يا جميل الوَجه والمَلامِح، ابقى تعالى لما تسلّم على مامتك!

ثم خرج من الغرفة التي يجلسون بها، تارِكاً خلفه "يُوسُف" يبتسمُ باتّساعٍ لذلك اللقب الذي أطلقه صديقه عليه..

*****

9- انتقامٌ مُخطَّطٌ له!

"الكَلماتُ قد تَكذِب، لكن الأفعال دائماً تقولُ الحقيقة!"

- أدولف هِتلر.

*****

بعد خمس ساعاتٍ مِن نَّومه العَميق، إثر تعبه وإرهاقه.. تقلَّب "عُديّ" بنومه، فشعر بجسدٍ ضئيلٍ يلفُّ ذراعيه حول خصره!

عقد حاجبيه وهو ينظرُ جانبه بسُرعة، ما لبث أن تذكّر حين رأى "يُوسُف" ينامُ بجانبه..

ابتسم باتّساع، تزامناً مع نبضات قلبه التي ارتفعت وهو يراه مُحتضناً إياه بإحكام!

ضَمَّه إليه بقوّة، ومشاعر يفتقدانها معاً.. ثم قَبَّل شعره المائل للبُنيّ.. قبل أن يبتعد عنه بحذرٍ، مَخافة أن يُوقظه!

خرج من الغرفة، بضيقٍ وحَنقٍ.. بعدما نظر في الساعة، وعَلم أن صلاتَي المَغرب والعِشاء قد فاتتاه!

وفي طريقه للحَمّام، مَرَّ على غُرفة المعيشة.. فوجدَ والدته جالسةً فيها، مع "ريتاچ" ووالدتها..

- السلام عليكم!

ألقىٰ السَّلام، فنظرنَ إليه.. بعدما كُنّ يتحدّثن..
وبينما ردّ الثلاثة عليه، إلا أن عسليتيْ "ريتاچ" تعلّقتا بمظهره الغير مُرَتَّب.. إثر استيقاظه من النوم..

ابتعلت ريقها، وابتلعت معه نبضات قلبها التي تصيحُ خجلاً! تعجّبت من ذاتها.. ويكأنها بِكرٌ تتزوّجُ لأوّل مَرّة!

وعند "عُديّ"، حين التفتَ بوجهه إليها، فوجدها تُطرِقُ للأرض..

ظَنَّ هو، أنها تفعلُ ذلك، لأنها لم تَعتَد بعدُ على الوَضع.. حتى أنها ارتدت إسدال صلاة والدته، وحجابها على رأسها!

تنهّد، قائلاً بنبرةٍ لطيفة، يُوجّه حديثه لها:

- هصلي اللي فاتني، ونقعد نتكلم شوية يا "ريتاچ".
شعر بالغرابة بعض الشيء، لقوله اسمها مُجرّداً.. إلا أنه يُريدُ أن يعتادَ على الأمر، حتى لا تخافَ منه!

ولكن مهلاً..
لِمَ يُريدها ألا تخاف منه؟!

هكذا فكّر وهو يدخل الحَمّام، ثم قرر نَفض تلك الغرائب، والاهتمام بالأشياء المُهِمّة فقط.. على الأقل حالياً!

*****

بعد نصف ساعةٍ، كانت "ريتاچ" جالسةً كما هي بغرفة المعيشة.. تنظرُ للاشيء، وتشردُ بأفكارها!

لازالَ وحشٌ يجثمُ فوقَ عقلها!
وحشٌ كُلَّ ما يُوسوِسُ به هو أنّه رُبّما كان "عُديّ" يخدعها..
أو رُبما هو انتهز الفُرصة ليتزوّجها..
أو..

- امّال فين ماما وطنط؟

سألها "عُديّ" بهدوءٍ، وهو يقطعُ عليها استرسالها في التَّفكير..
فأشارت هي له للدَّاخل حيثُ جلستا، ولم تستطع التحدّث..

أومأ برأسه بالإيجاب، ثم اتَّخذ مجلسه بالقُرب مِنها..
قرر أن يُذيب بعضاً من الجليد، علَّه يستمعُ لكلام المأذون..
ويُثبِّتُ عَتبة داره..
فسألها بنبرةٍ ودود:
- أنتِ خايفة مِنّي؟!

عقدت حاجبيها، وهي تشعرُ بنقص الأوكسجين داخل رئتيها من التوتر والخجل!
ألا يُمكنُ أن يكون قاسياً أكثر؟ فهي لا تُريدُ الوقوع له!

ورُغم ذلك تحدّثت بنبرةٍ مِضطربة:
- خالص، بس يعني.. أنتَ اللي قولتلي هنتكلم!

لم يدرِ لِمَ فعل ذلك، إلا أنه احتضن يديها المُرتجفتين بين كَفّه بلُطف.. وقال:
- مبدأياً عايزك تتأكدي إنك دلوقتي، سندك اتنين رجّالة.. أنا، و"يُوسُف" ابنك.. وبس!

وإني لو عايز أأذيكِ، كنت عملتها من أول مرة اتخانقتِ معايا فيها في الشّارع.. بس أنا عُمري بفضل الله ما قللت من واحدة سِت!
وتاني بقولهالك، متخافيش من أي كائن بيدّعي الرجولة.. طالما زوجك "عُديّ الجَمّال"!

كلامه لها كان غايةً في الحنان والهدوء.. شيءٌ كما العِلاج الذي يُوضعُ على الجِراح، يُعالجها..
كان حديثه، مِرمّماً لنتوءات قلبها!

ورُغم ذلك، فإنها سحبت يديها من كفه بخجل.. وكما سَقَط من قبل، فإن قِناع قوّتها الظاهريّ سَقط للمرة الثانية..
وهي تبكي فجأة أمامه!

لم تعلم، لِمَ أتتها تِلك الرَّغبة المُلِحَّة بالبُكاء.. حتى أنها لم تمهلها شيئاً!

شعر "عُديّ" بالضيق الشَّديد، وأنّها رُبّما بَكَت هكذا لإمساكه يدها..
فتحدّث قائلاً بنبرةٍ أفتَر من السَّابقة، وهو يبتعدُ قليلاً:
- بعتذر لو كُنت تخطّيت حدودي!

قاطعته بسُرعة، وقد فهمت ما ظَنَّه بها:
- أنا مش بعيّط بسببك والله!

كانت نبرتها مُتهدّجة مُرتجفة، فلانَت نبرته وهو يسألها بهدوء.. وقد شعر تلقائياً ببعض الحنق:
- يبقىٰ بسبب الحقير إيّاه؟

أومأت برأسها بالإيجاب، وقبل أن يفهمها خطأً للمرّة الثانية، أسرعت تُخبره بنبرةٍ باكية:
- أنا بس مش قادرة لسة أستوعب، إنك بتحبّ طِفل، ومُستعدّ تدافع عنه للدرجادي.. وأنتَ لسة شايفه من كام يوم!
مش قادرة أستوعب إن واحدة أذتك بكلامها أكتر من مرة، تُصِرّ إنك تدافع عنها بدون مُقابِل!

استمع لحديثها، ولمخاوفها التي تختبئُ بطيّات الحديث.. قبل أن يشرد ببصره في اللاشيء، ويقول بخفوت:
- فاقِدُ الشيء، يُعطيه على الأرجح.. ومن جَرَّب الأذيّة، يخشىٰ على غيره من الأذىٰ!

ابتلعت ريقها، وهي تستمعُ له بصمت..
يبدو أنه يُخفي داخِل قلبه جُرحاً من زيجته السَّابقة!

أما "عُديّ"، فقد أخذ نفساً عميقاً، قبل أن يتحدّث قائلاً بجِدّية:
- نتكلّم بقا في المُهم..

أولَته كامِل تركيزها، فيما أكمل هو بهدوء وهو يُحاوِل ترتيب حديثه:
- مش مِحتاج أقولك إن وجودك هنا أنتِ و"يُوسُف" وطنط، شيء مفروغ منه، ومش محتاج كلام كتير.. ممكن بكرة بإذن الله نروح شقتكم لو فيه ضروريات ليكم نجيبها.

صَمَت ثوانٍ، يرىٰ ردّ فعلها.. فأومأت هي برأسها علامة الموافقة!
هي بالأساس لم تكن لترفض، فما يزالُ "شهاب" كالذئبِ الطَّليق، يتربّصُ بفريسته إلىٰ تكون وحدها!

تنهّد "عُديّ" وهو يُكمل:
- بالنسبة لـ"يُوسُف"، الأفضل أنه يقعد في البيت الفترة دي لحد الامتحانات.. وبإذن الله فترة امتحاناته هاخد اجازة، و..
فهمت هي باقي حديثه، فأسرعت تُقاطعه بقوّة:
- مُتفهّمة خوفك على "يُوسِف"، لكن ده ابني أنا!
تِقدر تقولي لما توصله، هيكون بِصفَتك ايه؟!

كان يُناظِرها بنظراتٍ بارِدة، إلى أن تُنهي حديثها..
ثم تحدّث بثباتٍ وبعض البرود:
- "يُوسُف"! اسمه "يُوسُف" يا "ريتاچ"!

نظرت له ببلاهة.. حقاً! أهذا وقته؟!
في حين أكمل "عُديّ" بذات النبرة، وقد انتابه ضيقٌ وحَنقٌ من حديثها الأنانيّ:
- هوصّله المدرسة بِصَفتي ايه؟ بِصَفتي أخوه الكبير.. صديقه المُقرّب.. وأبوه اللي مخلّفهوش؛ عشان مش بحب كلمة "زوج أمه" دي!

قال جُملته الأخيرة، ببعض الامتعاض الطُفوليّ..

بُهِتت "ريتاچ" من ردّه، فيما أكمل بثبات، وهو يقتربُ من موضع جلوسها:
- المرادي عشان لسة متعرفينيش كويس، هعديها.. لكن بعد كدة مفيش حاجة اسمها "ابني أنا"، لأن فيها زعل! زي ما "يُوسُف" ابنك، هو بالنسبة لي حاجات كتيرة أوي!

لم تنبس "ريتاچ" ببنت شفة، وهي تُطالع نظراته الثابتة وقلبها ينبضُ بقوّةٍ من حديثه اللطيف!

وعند "عُديّ"، فقد شعر لوهلة وهو يغرق داخل عينيها، أنّ قلباً نقيّاً يقبعُ داخل تلك العسليّتَين!

حمحم وهو ينتبه لنفسه، بعدما أخذَ جولةً سريعةً على ملامح وجهها القَمحيّ..
وقبل ان يتحدّث أيٌّ منهم، صَدحَ صوتُ الهاتف الجوّال!

ابتلعت "ريتاج" ريقها، قبل أن تلتقط هاتفها من جانبها.. وقد أولَىٰ "عُديّ" تركيزه لها!

تصلّبت نظراتها على الرقم المُتّصل.. لم يُسعفها الوقتُ بالأمسِ حتى تحظره!

- مين اللي بيتصل؟
قالها "عُديّ" وهو يعقدُ حاجبيه، فقد لاحظ عدم إبداء ردِّ فعلٍ منها..
تهدّج صوتها واضطرب، وهي تُجيبه:
- ده.. ده "شهاب"!

صِدقاً، فقد شعر "عُديّ" بطاقةِ غضبٍ عاتيةٍ، وهو مُستعدٌّ لإفراغها بوجه ذلك الحقير!

أشار لها بسُرعة كي تُجيب على الاتصال، قبل أن يُخبرها أن تفتح مُكبّر الصَّوت، وألا تتحدث!

- طب حتى مَثّلي التُّقل شوية! كان ايه لازمته الشو بتاع امبارح، والواد اللي أجّرتيه عشان تتحامِي فيه؟!

قالها "شهاب" باستهزاءٍ وحقارةٍ واضحة!

شعرت "ريتاچ" أن الهواء قد نَفِد من رئتيها، وبقلبها الذي يُمزِّقه إرباً!
لم يكن يهمّها شخصه، كُلّ ما أرادت الصُّراخ والبُكاء مِن أجله، أنّ ذاكَ الحقيرُ القَذِرُ، لا يفعلُ شيئاً سِوىٰ أن يظنَّ بها السُّوء!
ويكأنها لم تكن زوجته، أو أمٌّ لابنه!

وفي الحقيقة، لقد كان "عُديّ" هو الآخر يشعرُ بغضبٍ عارِمٍ من حديث ذلك المُخنّث على "ريتاچ"، وعليه!
فَهِم جيّداً شخصيّة "شهاب"، فقرر اللَّعب معه بنفس أسلوبه.. البرود والاستفزاز!
فتحدّث قائلاً ببرودٍ، يعلمُ الله وحده من أين اكتسبه بتلك اللحظة:

- مش عيب لمّا كائن قَذِر زيّك، يتّصل على مراتي في وقت زي ده.. وكمان من غير وجه حقّ!

شعر "شهاب" بصاعقةٍ تنزلُ فوق رأسه، وهو يستمعُ لذلك الحديث، من ذلك الصَّوت!
بالطَّبع لقد تعرَّف عليه..

إلا أنه ابتلع الصَّدمة، مُجيباً على "عُديّ" بخشونة ووقاحة:
- مرات مين ياض أنتَ، ما تُظبط كدة!

أخذ "عُديّ" الهاتف من "ريتاچ"، قائلاً ببرود قاسٍ كالجليد، وهو يضعه على أذنه مُغلقاً مُكبّر الصوت:
- مراتي.. زَوجي بالنِّقاط، ورُوحي دونها.. My wife بالانجليزي.. Ma femme بالفرنساوي!
تِحب أقولهالك بلُغة تانية؟!

ومع عِلم "ريتاچ" أنه ليس الوقت المُناسِب لذلك، إلا أنَّ قلبها تمرَّد عليها حين نطق "عُديّ" تِلك الكلمات..
وخصوصاً كلمتي "رُوحي"، و"Ma femme"!

وعَن "عُديّ" يعلمُ تمام العِلم أنه أشعلَ نار الغضب بقلب الآخر من تنفّسه المُرتفع..
إلا أنه أكمل بقسوةٍ وحِدّة:
- يعني أنتَ اللي تُظبط، ومتتصلش تاني على الرقم ده!

وتاني بحذّرك يا "شهاب"، لو راجل فكّر بس تعملهم حاجة.. ولو إني شاكك في النُّقطة دي، لأنك ببساطة.. مش راجل!

وقبل أن يُغلق "عُديّ" المُكالمة، سَمعه يُتمتم شيئاً ما بغضب عارِم!
لم يهتم كثيراً، وأغلق الهاتف مُعطياً إياه لـ"ريتاچ"، التي ما إن لامس كفّيها، حتى وجدهما كقطعتين من الثَّلج، يرتجفان ويرتعدان!

ورُغماً عنه، آلمه قلبه لخوفها..
فتنهّد بثِقَلٍ، ومَدّ كَفّيه يُحكِم الإمساكَ بكفّيها.. ثم تحدّث بنبرةٍ حَنون، وصوتٍ خافت:
- متخافيش، أنا معاكم.. وربنا ﷻ معانا جميعاً أولاً وأخيراً!
صمتَ لثوانٍ يبتلعُ ريقه، وهو يتذكّرُ.. قبل أن ينبسَ بصوته الرَّخيم الجميل:
- ربنا ﷻ قال: **(وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ لَيَقولُنَّ اللَّهُ قُل أَفَرَأَيتُم ما تَدعونَ مِن دونِ اللَّهِ إِن أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَو أَرادَني بِرَحمَةٍ هَل هُنَّ مُمسِكاتُ رَحمَتِهِ قُل حَسبِيَ اللَّهُ عَلَيهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلونَ).**

أدمعت عيناها بحُرقةٍ، كحُرقةِ قلبها وهي تستمعُ لتِلاوته العَذبة..
شعرت بهدوءٍ يسكن قلبها، وهو يُكمِل:
- النبي ﷺ بردو كان بينصح سيدنا "عبد الله بن عبّاس"، وقاله: **"... واعلَم أن الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيء، لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله لَكَ..**
وإن اجتمعوا على أن يضرّوكَ بشيءٍ، لم يضرّوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك".

سادَ سُكونٌ بينهم لدقائق، يتشرّبان تِلك الأحكامُ الإسلاميّةُ التي تُلَيت عليهما..
قبل أن يشقَّ ذلك السُّكون، صوتَ "يُوسُف" وهو يصرخُ ويبكي!

كان "عُديّ" هو الأسرع، حيثُ ركضَ بسُرعةٍ تجاه غُرفته، تتبعه "ريتاج" وقلبها يتواثبُ بهلعٍ على ابنها!

كان المسكينُ يهذي داخل نومه، فأسرع "عُديّ" يحتضنه بحنانٍ وهو يقرأ بأذنه المعوذتين وآية الكُرسيّ..

ثوانٍ، وهدأ "يُوسُف" وهو يتمسّكُ بحضن "عُديّ"..

ظَلَّ الأخيرُ يمسحُ على شعره بلُطفٍ، بنظراته الشَّارِدة التي تمتلئُ غضباً..
فقد التقطَ كلماتٍ قالها "يُوسُف" بكابوسه على غِرار:
"والله معملتش حاجة!"
"متضربنيش خلاص مش هكررها تاني!"
"متضربش ماما تاني!"

- "شهاب" كان بيضربه كتير.. ساعات من غير سبب، وساعات عشان.. عشان ميضربنيش أنا!

همست بها "ريتاچ" بنبرةٍ مُضطربةٍ، حيثُ جلست عند طرف السَّرير، تُربّتُ على قدم ابنها!

ابتلع "عُديّ" تلك الغُصَّة التي تكوّنت بحلقه، وقد انقبضَ قلبه لدرجةٍ آلمته، وجعلته يرغبُ بالبُكاء!
ولم يَجد ما يُقال.. فما الذي سيُقال بعد ذلك؟!

فيما أكملت هي وقد بدأت تمتزجُ نبرتها، بالبكاء:
- مش أول مرة يصحىٰ من النوم مفزوع كدة، كتير أوي بتجيله كوابيس بسبب الزفت "شهاب"!

وللمرةِ التي لا يدري عددها، شعر "عُديّ" برغبته بقتل ذلك القَذِر!

وللمرة التي لا تدَري هي عددها، شعرت "ريتاچ" أنها السببُ الرئيسيّ فيما هي وابنها به!

أليست هي من أصرَّت عليه؟!
أليست هي من حذّرتها والدتها منه؟!
أليست..

- "ريتاچ" تعالي مكاني، عشان "يُوسُف" ميتضايقش!

قالها "عُديّ" وهو يُحاول سَحبَ نفسه ببطءٍ وحذرٍ من عِناق "يُوسُف"..
في الواقع، هو لا يُريدُ الابتعاد عنه قيد أُنملة.. إلا أنه أيضاً لا يودُّ أن يكون أنانياً، وسيتركُ لهما الغُرفة بأسرها، وينامُ هو على الأريكة بالخارج..

تململ "يُوسُف" بنومه، وتمسّك مُجدداً بعناق "عُديّ" وبقوّة أكبر!
لاحظت "ريتاچ" ذلك، فابتسمت قائلةً:
- خلاص مش مشكلة، ممكن تفضل هنا لحد ما يروح في النوم!

نظر لها وتنهّد.. ثم عَدّل وضعية نوم الصَّغير، فيما ظَلّت هي جالسةً بمكانها.. قبل أن تُحدِّثَ "عُديّ" بتردد وحرج:

- هو ينفع، لو أنتَ حافظ قُرآن تقرألنا؟ أصل صوتك ما شاء الله جميل وفيه سَكينة كدة.

ابتسم هو باتّساع، وقد طرقَ قلبه من إطرائها!
من كان يظنُّ أن التي تشاجرت معه أكثر من مرةٍ، تطلب منه شيئاً كهذا؟!

أسرعت "ريتاچ" تقول ببعض الضيق، حين طالَ صمته:

- لو مش عايز براحتك!

هَزَّ رأسه بيأسٍ من مشاكل الثقة التي تمتلئُ بها.. ثم حمحم مُجلياً حلقه، وبدأ يتلو بهدوء سورة (الكهف) التي يحفظها ويُحبُّها كثيراً!

نظرت "ريتاچ" تجاه "يُوسُف" بابتسامةٍ حاولت كَبتها.. وقد طَرق قلبها داخل أضلعها من صوته الجميل، ومن تنفيذه لطلبها البسيط.. وماذا يُريدُ المَرءُ مِن الدُّنيا، سِوىٰ أن يشعرَ بأهميّته عِند أحدهم؟!

*****

تداخل صوتُ رنين المُنبّه، مع الحُلم.. ثوانٍ، وفَتحَ "عُديّ" عينيه وهو يشعرُ بثِقَلٍ بجفونه وألمٍ بعظام جسده..

نظر حوله، فصُدم من المنظر!
فقد نامَ بمكانه، بجوار "يُوسُف".. وكانت "ريتاچ" نائمةً بوضعيّةٍ غير مُريحة، تضعُ رأسها على قدمه..

مَدَّد ذراعيه، في مُحاولةٍ منه لفكّ تشنجات عِظامه..
ثم همسَ مُنادياً على "ريتاچ" يُحاوِل إيقاظها.. وقد توقّف المُنبّه عن رنينه المُزعِج..

فزعت "ريتاچ" لوهلةٍ أنها تنامُ بهذا الشكل، فطمأنها قائلاً بهدوء:
- محصلش حاجة، أنا مش غريب يعني.. قومي عشان نصلّي الفجر، وأنا كدة كدة رايح الشُّغل..

*****

دارت الأيامُ دَورتها الطبيعيّة، حتى أتىٰ يومُ الجُمعة..

كان "عُديّ" قد انتهىٰ من صلاة العصر، فجلسَ على الأريكة، بالغرفة التي يُعطي بها الدَّرسَ الخُصوصيّ للشباب..

كان قد شَرَد بأفكاره في ذلك الأسبوع الهادئ بعض الشيء.. حيثُ كان ينامُ أغلب الوقتِ بجانب "يُوسُف"، بُناءً على رغبة الصَبيّ..

ولا ننسىٰ طبعاً سعادة الصَبيّ حين علم أنه لن يذهب للمدرسة حتى موعد الاختبارات!

قهقه بخفّة حين تذكّر ردّة فعله.. وما لبث أن ابتسم باتّساعٍ حين رآه يطلُّ عليه من الدّاخل، وقد ارتدىٰ ثياباً جديدةً استعداداً للخروج مع "عُديّ" بنُزهة، كما وعده..

- لبست بدري ليه يا جميل الاسم والمَلامح، لِسة بدري يا عمّ!

قالها "عُديّ" بابتسامةٍ واسعة، وازدادت اتّساعاً حين أجابه "يُوسُف" وهو يجلسُ بجانبه على الأريكة:

- ينفع أحضر معاك الحِصة يا بابا "عُديّ"؟

طرق قلبُ الآخر، وقد تلألأت الدُّموع داخل عينيه بتأثر وهو يستمعُ لتلك الكَلمة التي افتقدها.. وقبل أن يُجيبه، سمع صوتَ شِجارٍ يأتي من أسفل العمارة في الشارع!

عقد حاجبَيه، وهو ينظرُ لـ"يُوسُف" قائلاً بهدوء:
- خلّيك هنا، متخافش.. هشوف فيه ايه، وأرجع علطول!

ثم قام من مكانه، مُتجهاً للشُرفة ليرىٰ الأوضاع..

كانوا بِضعة شبابٍ يتشاجرون، في الحقيقة هو لا يعلمُ أيٌّ مِنهم، إلا أنه فَهِم الوَضع!
رُبّما كانوا يتشاجرون على شيءٍ ما.. ولا يُريدُ إساءة الظَنِّ، ولكنّ شجارهم قد يكون أيضاً على فتاةٍ ما!

- بابا "عُديّ"، فيه ناس عايزينك برّا!
صاحَ بها "يُوسُف" بنبرةٍ مُتلعثمةٍ مُضطربة، فظنَّ الآخر أنه يقصدُ الفتيان..

خرج مُمسكاً بيد "يُوسُف"، إلا أنه لم يَجد أحداً.. فتحدّث الصغير:
- واقفين على الباب.

عَقَد "عُديّ" حاجبَيه، وهو يتّجه مع الصَبيّ.. وما كادَ يصلُ للباب المفتوح، حتىٰ انقبضَ قلبه بقسوةٍ وعُنف.. وهو يرىٰ رجالاً يرتدون ثياباً رسميّةً..
قبل أن يقول واحدٌ منهم بصرامة:
- أنتَ "عُديّ الجَمّال"؟

ابتلع "عُديّ" ريقه، وهو يُومئ برأسه بالإيجاب..
فاقترب شُرطيٌّ مِنه، بينما الآخر يُكمِل بذات النبرة:
- معانا أمر بإحضارك، اتفضل معانا!

*****

10- ضَربةٌ، ألمٌ.. وصَدمة!

"ضَاقَت.. فلمّا استحكمت حلقاتها، فُرِجَت!"

*****

شعر "عُديّ" بنفادِ الهواء من رئتيه، بينما الشُّرطيُّ يقتربُ منه مُمسكاً إياه من ذراعه بصرامةِ وإحكامِ القانون!

كان عقله مشغولاً بـ"يُوسُف"، الذي يُشدد إمساكه بكفّه وهو ينظرُ إليه ويتساءلُ بصوتٍ خائفٍ مُرتجف:

- بابا "عُديّ"، أنتَ هتروح معاهم!

ابتلع "عُديّ" ريقه، وابتلع معه انقباضُ قلبه الذي يتزايد وهو يُفكّر بالصَّغير.. قبل أن ينظر للضابط قائلاً بنبرةٍ هادئة:

- ممكن دقيقتين أتكلم معاه؟

ولم يُمهله ليردّ عليه.. فجثىٰ على رُكبتيه وقرّب "يُوسُف" إليه، قائلاً بنبرةٍ مُتهدّجة.. وهو يُقاوِمُ كُلَّ ذرّةٍ لديه كي لا يَبكي:

- "يُوسُف" يا حبيبي، اجمد ومتخافش.. وبإذن الله هرجعلك قُريّب، وهفسّحك كمان..

قاطع كلامه، جذب الشُّرطيّ له بقسوةٍ وعدم اكتراث.. فأكمل "عُديّ" بسُرعة، وهو يسيرُ معهم مُرغماً:

- مامتك وجِدّتك ووالدتي أمانة معاك يا "يُوسُف".. واثق فيك يا صديقي!

أستودعكم الله الذي لا تضيعُ ودائعه يا نور عيني!

كان آخر حديثه بنبرةٍ مُضطربةٍ مُرتعشة، إثر سماعه للصَبيّ وهو يَبكي بحُرقةٍ، يستنجدُ بوالدته..

نَزَل "عُديّ" على درجات السُلَّم، وقد غابَ ذهنه تماماً عن مَعرفة السبب الذي استدعوه لأجله.. وشَردَ ذهنه مع والدته..

تعمَّد عدم إعلامها قبل ذهابه معهم، فهو قَطعاً لن يتحمّل رؤية تألمها وبُكائها!

يَكفيه جِدّاً حِين تركَ "يُوسُف" وهو يبكي، ولم يستطع العَودة ليأخذه داخل حضنه.. والإلقاء بالأوامر الرسميّة عَرضَ الحائط!

خرج من باب العمارة، وهو يتحاشىٰ النظر، خَجِلاً من أبناء حارته..
"رائع! قُدوتهم مأخوذٌ من قِبَل الشُّرطة، وهو حتىٰ لا يعلمُ جُرمَه!"

حين وصلت "ريتاچ" للشارع وهي تلهث بفعل القفز والركض على السُّلم.. كانت بالكاد ترىٰ ابتعاد السيّارة، التي تحملُ "عُديّ" بداخلها!

كانت الدموع ما تزالُ تسيلُ من مقلتيها مُنذُ عَلمت بما حدث.. أضِف لذلك رغبتها بالصُّراخِ بقوّةٍ من القهر والغَضَب!

انتفضت لشعورها بيدٍ تُربّتُ على كتفها بهدوء، ما لبثت أن وجدت جارتهم أم "رانيا" تقول بخفوت وبعض الأسىٰ:
- ربنا يصبّركم يا بنتي، ويردّه ليكم سالِم غانِم! وهو أستاذ "عُديّ" مفيش أطيب منه، وإن شاء الله ربنا يوقّفله ولاد الحلال اللي شبهه.

هزّت "ريتاچ" رأسها بفتور، وهي لا تَجِدُ شيئاً تقوله..

تنظرُ للذين تفرّق جَمعهم بعدَ رحيل السيّارة، وهم يضربون أخماساً في أسداس..
ورُبّما تنظر النسوة إليها وهن يُمصمصن شِفاههنَّ بشفقة!

تنهّدت أم "رانيا"، وهي تشعرُ بشفقةٍ حقيقيّةٍ تجاه حال "ريتاچ" ووالدة "عُديّ".. قبل أن تقول لها وهي تتخذُ خطواتها للعودة:
- لو احتاجتوا حاجة يا بنتي، احنا موجودين.. الدور الثالث، الشقة اللي على اليمين..
وإن شاء الله غِيبته متطوّلش!

ثم دخلت للعمارة، تاركةً "ريتاچ" شاردةً في اللاشيء..
تشعرُ بطاقةِ حنقٍ وغضبٍ من آنٍ لآخر..
ويؤلمها قلبها على حال ابنها، الذي تركته يبكي ويصرخُ مُطالِباً بـ"عُديّ"!

دلفت للعمارة، وقررت أن تجلس على درجة السُّلم تُفكِّرُ بما ستفعله..

لا تستطيعُ التفكير مُطلقاً في كُنه السبب الذي أُخِذ "عُديّ" لأجله..
إلا أنّها تعلمُ الجاني، كما يقولُ رجالُ القانون!

كَيف فعلها، وكيف طاوعه قلبه؟!
لن تتعجَّب كثيراً.. فهذه عادته مع الأقربين، فما بالها بالغُرباء!

ابتلعت ريقها، وتنهّدت بثِقَل.. قبل أن تقوم من مجلسها، وتنفض التراب عن ثيابها..

لقد اتَّخذت قرارها، ستُحادِثُ الشَّخصَ الذي يستطيعُ إخراجه من ذلك المأزِق..
حتىٰ وإن استدعت تِلك المُحادثةُ، نتائج ليست لصالِحها!

*****

مُنذُ جيئ به إلىٰ هُنا، وهو يُعامَل مُعاملةً مُوصىً بِها!

إهانة..
صفعٌ على الوجه..
شتائمُ بذيئةً، تمسُّ والدَيه.. حتىٰ أباه المُتوفّي..
صفعٌ مرةً أخرىٰ!

إلىٰ أن جذبوه للمرة الثانية، بعدَ مكوثه لساعتين بزنزانةٍ انفراديّة.. ليُقابِل "حضرة الظابط"..

حاول السَّير مَعهم، وهو مَعصوب العينين.. حتىٰ أوصلوه للغُرفة المُرادة..
فأدخلوه بها، ثم رحلوا.. مُغلقين الباب خلفهم..

- اقعد يا "عُديّ"!

تحدَّث بها صوتٌ هادئٌ، رُغم صرامته الواضحة..
فحاوَل "عُديّ" أن يتحسس مُحيطه بيديه المُكبّلتين..
قبل أن يجلس باضطرابٍ على الكُرسيّ!

تحدّث الصوتُ مرةً أخرىٰ، وهو يُشعلُ سيجاراً ينفثُ دخانه بوجه "عُديّ":
- طبعاً أنتَ عارف جاي هنا ليه!

ابتسم "عُديّ" بسخرية مريرة، قبل أن يقول بصوتٍ حاول استجماع هدوءه، وكبح غيظه:
- ياباشا والله أنا معرفش حاجة! أنا مُدرس، بمشي طول عُمري جنب الحيط..
حتى الأسبوع اللي فات اتجوزت!

- لأ ألف مبروك! أنتَ هتستعبط ياض؟!

نَبسَ الصوتُ بسُخريةٍ بأول حديثه.. قبل أن يختمه بحِدّة وغِلظة، وهو يضرُب الطاولة بكفّه!

ابتلع "عُديّ" الإهانة، وهو يشعرُ بالغضبِ الشَّديد يغلي داخل أوردته!
لم يتعرّضَ قبلاً لهذا الأمر، وهو حقاً كما أخبر الضابط..
إلا أنه قرر التزام الصَّمتِ، قبل أن يسمعَ الضابط يقولُ بتهكّم:

- تقدر تقولي بتدّي دروس في بيتك، بصفتك ايه؟!

لولا أن عينا الآخر، ملفوفتين بتلك القطعة القُماشية.. لكن الضابط قد لاحظَ اتّساع عيني "عُديّ" على آخرهما..

حاول "عُديّ" بأقصىٰ قوّته أن يكبت ابتسامة الفَهم التي ارتسمت على ثغره، بينما يُجيبُ الضابط بنبرةٍ ذات معنىٰ:

- طب ما نيجي سِكة ودوغري يباشا، وقولي علطول إني هتشرّف وأقعد معاكم هنا كام يوم حلوين.. كـ تأديب يعني!

عَلَت ضحكات الضابط بقوّة، حتى اتّسعت ابتسامة "عُديّ" حين تأكَّد من خواطره.. قبل أن يتيقّن أكثر بسماعه للضابط يقول بسخرية:

- ودي حد قالهالك، ولا عِرفتها لوحدك يا روح ***؟!

قبضَ "عُديّ" على كفّيه بقوةٍ، حتى شعر بالألم بكفّيه..
يُقسمُ أنه لو كان بظروفٍ أخرىٰ، مع شخصٍ آخر.. لكان أوسَعه ضرباً، لتلك الإهانات المُتتالية!

قام مع الشُّرطيّ الذي نُودي عليه، ليُعيده لزنزانته الإنفراديّة.. مع تكرر الأمر الذي أصبحَ مُملاً!

إهانة..
صفعٌ على الوجه..
شتائمُ بذيئةً، تمسُّ والدَيه.. حتىٰ أباه المُتوفّي..
صفعٌ مرةً أخرىٰ!

حَلَّ الليل، بسكونه وظلامه.. وحَلَّ معه الأسىٰ والصمتُ بمنزل "عُديّ"..

كانت والدته مُنذُ رحيله، جالسةً بغرفتها، تشرد بنظراتها وأفكارها..

وبجانبها تجلسُ والدة "ريتاچ"، تُحاوِل التخفيف عنها بحديثٍ أو مُواساة..

وبين حينٍ وآخر، تجيءُ لها "ريتاچ" تسألها عن حالها، وتحتضنها..
ثم تعودُ مرةً أخرىٰ لغرفتها.. أو بالأحرىٰ، غُرفة "عُديّ"..
حيثُ جلس "يُوسُف" على سريره، تنزلُ دموعه من زرقاوتيه.. ويتخللُ بُكاءه الصَّامِت، شهقاتٍ من آنٍ لآخر!

تنهّدت بقوّة، فقد كان الوضعُ مُعقّداً بالفعل.. وحُزن ابنها وبُكائه المُستمرّ، يزيدانه تعقيداً..!

قرّبت "يُوسُف" لها، تحتضنه وهي تقول بهدوء ونبرةٍ لم تَخلُ من اضطراب:
- حبيب قلبي، العياط مش هيرجّعه.. مش هو قالنا قبل كدة، لازم نلجأ لربنا ﷻ؟

كان الصمتُ هو ما قابلها، باستثناء شهقات الصَبيّ التي كان يحاول خَفضها.. فتنهّدت، قبل أن تُحادثه بمُزاحٍ تُخفف عنه:
- على فكرة لما "عُديّ" ييجي، هقوله إنك كنت بتعيّط.. وهو هيتضايق منك! أنتَ عايزه يتضايق منك يا "ياسّو"؟!

- أنا مش عايز غير أنه يرجع تاني، هو وعدني أنه مش هيأخّر.. ووعدني هيفضل جنبي علطول!

قالها "يُوسُف" بنبرةٍ باكية، جعلت "ريتاچ" تشعرُ بغُصة حلقها تتسع وتصلُ لقلبها..
قبل أن تقول له بهدوء وابتسامة مُغتصبة:
- و"عُديّ" سيّد مَن يُوفّي بوعده والله..

لم تَجد ما تُكملُ به حديثها، فابتلعت ريقها وهي تضحكُ بخفّة وتسأله.. تُلهيه عن الحُزن:
- هو ليه دايماً كان بيقولك "جميل الاسم والملامح".. وليه دايماً كان ناقص يخانق معايا لما أنادي عليك "يُوسِف"، مش "يُوسُف"؟

صمتَ "يُوسُف" ثوانٍ وهو يبتسمُ باتساع، قبل أن يُجيبها وهو يمسحُ دموعه بأن هذا اللقب أطلقه عليه لأنه وسيم، ولأن اسمه جميلٌ.. وهو قد حازَ على الاثنين كما كان سيدنا "يُوسُف" عليه السلام..

كما أخبره أن القُرآن ذكر كلمة "يُوسُف" بضمّ حرف السّين.. لذا من الأصحّ أن نقولها هكذا!

ثم أخذَ يحكي لها بضعة أشياء كان يفعلها مع "عُديّ"..
قبل أن يشعر "يُوسُف" بالنُّعاس، ويذهب في النَّوم.. بينما ظَلّت والدته تحتضنه وتمسح على شعره بحنان..

ثوانٍ، حتىٰ تأكدت من عُمق نومه.. فقبّلت جبينه بحنان، ثم ارتدت إسدال الصلاة وأمسكت هاتفها..
ليسَ لـ"عُديّ" أيُّ ذنب، لذا يجبُ عليها أن تسعىٰ لإخراجه!

وضعت الهاتف على أذنها، وهي تستمعُ لصوت جرس الانتظار..
وويكأن الطرفَ الآخر ينتظرُ تلك المُكالمة، حتى أجاب على المُكالمة..
فتحدّثت هي بحِدة، قبل أن يتفوّه بأي شيء:
- "عُديّ" ذنبه ايه يا "شهاب"؟!

قهقه الآخر بسماجة تَليقُ به، حتى أنها شعرت بالرغبة بتحطيم جمجمته..
قبل أن يُجيب عليها ببرود:
- قرصة وِدن بس يا عيون "شهاب"!

كانت "ريتاچ" تتنفسُ بحدة وغضب، وصلا للآخر.. قبل أن تُهدّئ ذاتها قليلاً، وهي تقولُ له بجدّية:

- "شهاب"، ممكن لو ليك يد في الموضوع، تخرّجه.. ووعد، هدفعلك المبلغ اللي أنتَ عايزه!

وعِند انتهاء حديثها، اتّسعت ابتسامته، كذئبٍ شَرس وَجد فُرصة الانقضاض على فريسته..

*****

مرّت ثلاثة أيام، مَكثَ بها "عُديّ" بذلك الحَبس الانفراديّ المُظلم، عَطِن الرائحة!

كُلّ ما كان يشغلُ ذهنه في ذلك الوقت، هو "يُوسُف"، ووالدته!
كيف حالهما؟!

بالتأكيد ليسا جيّدين!

ثم انحدرت أفكاره تجاه "ريتاچ"..
هل هي حزينةٌ عليه، أم أنها لا تُبالي؟!

- "عُديّ الجَمّال"، أنتَ مطلوب برا!

قالها الشُّرطيّ، تزامناً مع وضع "عُديّ" كَفّه فوق عينيه..
فهو مُنذُ فترةٍ لم يعتد على الضوء السّاطع!

سار مع الشُّرطيّ، وهو يعرجُ قليلاً..
يبدو أن كاحله التوىٰ في إحدىٰ المرّات التي يتمُّ إلقاءه فيها بعُنف!

وصل للغُرفة المُرادة، فسمع صوت ضحكاتٍ مرتفعةٍ تأتي منها..

دخل الغُرفة، فصُعق من وجود "شهاب" بها.. والذي يبدو أنه على صِلةٍ وثيقةٍ بذاك الضابط..

في الواقع، هو لم يندهش كثيراً.. فقد جالَ بذهنه أن لـ"شهاب" يداً بما هو عليه الآن!

نظر إليه الضابط، وأخبره أنه يُمكنه الخروج، فلم يعودوا بحاجةٍ إليه..
وقبل رحيله، استأذن "شهاب" أيضاً.. ثم اقترب من "عُديّ" متأبطاً ذراعه بوِد مُصطنع.. ويكأنهما صديقا طفولة!
- كَفّارة يا شيخ "عُديّ"، والله وطلعت سوابق يا عمّ!

قالها "شهاب" بمزاحٍ ثقيل سمج، فلم يُجِبه "عُديّ"..
بل أبعد ذراعه عنه، وسار مُبتعداً ليوقف أي سيارة أجرة..

فصاحَ "شهاب" من وراءه بسُخرية:
- ليّا أمانة عندك، هترجعلي قُريّب أوي.. وعَلّم على كلامي!

وقبل أن يركب "عُديّ" السيارة، نظر للآخر بتهكّم، وأجابه ببرود:
- ده عشم إبليس في الجنة يا.. يا "شوشو"!

أنهىٰ حديثه بتلك الكلمة، وهو يعلمُ تمام العِلمِ ان الآخر يغلي من الغضب والغيظ الآن..

تباً له!

*****

ما إن وصل السائق أمام عمارة "عُديّ"، استأذن منه الأخير ليصعد ويجلب له نقوده.. وأخذ يعتذرُ له بشدّة..
صعد للعمارة بخطواتٍ مُتمهلةٍ بطيئة، إثر كاحله المُتألم..
وما إن وصل لشقته، حتى طرق الباب..

ثوانٍ، وفتحت له والدته بملامح وجهٍ فاترة.. ما لبثت أن اتسعت ابتسامتها وبدأت الدموع تهطلُ من عينيها وهي تحتضنه بشدّة، وتُقبِّلُ كتفه بحُب واشتياق..
ثوانٍ أخرىٰ، وخرج "يُوسُف" ووالدته حين سمعا صوت والدة "عُديّ"..

صرخ "يُوسُف" باسم "عُديّ" بسعادة وفرح.. ثم انطلق نحوه حتى أخذه الآخر في عناقٍ أبويّ..
رُغم تألم قدم "عُديّ" بشدة!

ولم ينسَ طبعاً أن يُسّلَّم على "ريتاچ"، التي كانت تتحاشى النظر له وملامحها شاحبةٌ بشدّة!

لم يعلم أن قلبها يرقصُ طرباً لعودته، إلا أن شرودها يُخفي خلفه شيئاً..
وحتماً سيعلمه بعدما يرتاحُ قليلاً..

*****

كالعادة، استيقظ من نومه وبجانبه "يُوسُف" يُحكم احتضانه..
ويكأنه يخشىٰ أن يكون ما رآه مُجرّد حُلم!

شدّد "عُديّ" من احتضانه، وهو يُقبِّلُ شعره بحُبّ!

دقائقُ من مكوثه في السَّرير، شارِد الذِّهن.. حتى وجد باب غُرفته يُفتح، وتُطلُّ منه "ريتاچ" بترددٍ..
تُقدِّمُ قَدماً، وتؤخرُ الأخرىٰ!

شعر هو أنها تُخفي شيئاً، تُريدُ البَوح به.. فاعتدل بجلسته بحذرٍ، وصفف شعره بأصابعه وهو يقول لها بهدوء:
- تعالي يا "ريتاچ"، عايزة حاجة؟

حاولت ابتلاع ريقها، الذي بالفعل قد جفّ من التوتر..
ثم جلست على الأريكة، قائلةً بتلعثم:
- حمد الله على سلامتك.

ردّ عليه التحيّة، قبل أن يقول بحزم، وهو ينظرُ بتفحّصٍ لعينيها اللتان تُخفيهما عنه:
- فيه حاجة حصلت وأنا مش موجود، "شهاب" عملّكم حاجة؟

هزّت رأسها بالنفي بسُرعة، وقبل أن يتنهّد براحةٍ أن الأمر رُبّما يكون عاديّاً.. حتى ألقت صاعقتها بوجهه وهي تقول بنبرةٍ باكية:

- "عُديّ".. احنا لازم نتطلّق!

*****

11- ومَا بَعدَ الصَّبرِ، إلّا الفَرج!

كان ينظرُ لها بعدم استيعاب، ويكأنها تقولُ حديثاً من المَرّيخ..
وما لَبثَ أن سألها مُراوِغاً:
- "ريتاچ" أنتِ بتعيّطي ليه؟ قوليلي بصراحة، فيه حاجة حصلت وأنا مش موجود!

فأجابته وهي تبكي بحِدّة، تُدرِكُ الآن فقط ما أوقَعت نفسها به:
- "شهاب" خيّرني بين إني أدفعله فلوس، أو أتطلّق منك.. في مُقابل إنك تخرج من السجن!

- وأنتِ اختارتي الطَّلاق! بقيتِ بالظبط كالمُستجير من الرمضاء (الحَرّ الشَّديد)، بالنّار!
مقدرتيش تستحملي الجَلد والسّياط اللي هنا، وقولتي عند "شهاب" أرحم؟!

صاح بها "عُديّ" بحِدّة وانفعال، خاتِماً حديثه بسُخرية وتهكمٍ واضحَين!

وما لبث أن أدركَ شيئاً، فسألها بغضبٍ تملَّكَ من جوارحه:
- وبعدين مين أصلاً اللي قال إني عايز "شهاب" يتدخّل؟ ليـه اتكلّمتي مع الـ***** ده وأنا مش موجود!

ولم يُدرِك أن صوته كان عالياً، إلا عِندما سمع صوت "يُوسُف" الذي استيقظ فَزعاً..
واحتدادُ بُكاء "ريتاچ"، التي وضعت كفّيها على وجهها تُحاوِل كبت شهقاتها التي بدأت في الارتفاع..

زَفر "عُديّ" بحِدّة من نفسه.. فهو لم يُرِد أن يفقد سيطرته على ذاته وغضبه..
ولكنها غبيّةٌ، ومُتهوّرة!

احتضن "يُوسُف"، وهو يُهدّئه.. ثم همس له أن يترك الغُرفة ليتحدّث قليلاً مع والدته..

تابع "عُديّ" بعينيه خروج الصَبيّ من الغُرفة، حتىٰ رأى الباب يُغلَق..
قامَ من السَّرير، مُقترباً من موضع جلوسِ "ريتاچ" وهو يعرج قليلاً..

جلس بجانبها، ثم أخذ نَفساً عميقاً مُحاوِلاً ان يتمالك غضبه قدر المُستطاع.. وقال بضِيق تُعبّرُ عنه ملامحه قبل نبرة صوته:

- احكيلي اللي حصل، وخلّاكِ تعرّضي نفسك وابنك للبَلوة دي!

كانت لا تزالُ تَبكي بحِدّة، وهي تشعرُ بالغضب..

بالغضب من ذاتها، أنها تهوّرت!
ومن "عُديّ"، لتعنيفه لها ويكأنها صغيرة!
ومن "شهاب"، لحقارته!

رأى "عُديّ"، أن صمتها قد طَالَ بسبب إكمالها للبُكاء..
فزفر بقوّةٍ، ثم مَدّ يده يحتضنُ كَفّيها بحزمٍ حَنون وهو يقول بخفوت:

- اهدي طيّب، أنا بعتذر إني تجاوزت حدودي واتعصّبت عليكِ.

لم تُجِبه بشيء، وما زالت تبكي.. فعَلِم هو أنها ما تزالُ غاضبةً منه، وهذا حقّها!

فهي لم تَلجأ إليه، وتحتَمي بِه من أذيّة البَشر.. ليأتي هو ويُعنّفها!

وفي ثوانٍ، خَطر بباله أنّه حين كانت والدته تغضبُ مِنه، ويرغبُ بصُلحها.. يحتضنها ويُمازِحها..

ولَكِنّها ليست والدته..
بل زَوجته!

زَوجته.. إذاً، ما الضَّيرُ في ذلك؟!

حَرَّر "عُديّ" يَده من فوقِ كَفِّها، فشعرت هي بأنها فَقَدت ذاك الدِفء الذي تخلل لروحِها رُغم غضبها مِنه..
ما لَبِثت أن شهقت بخِفّةٍ داخلها، حين وجدته يُعانِقُها بهدوءٍ ولُطفٍ تَملّكا مِن فؤادِها!

تحدَّثَ هو بنبرةٍ مازِحةٍ، بينما يبتسمُ باتّساعٍ حِين شعر بنبضاتِ قلبها التي تتسارع:
- يست baise moi (تباً لي) إني زعقت ليكِ..
وبعدين ما أنتِ اتخانقتِ معايا مرتين قبل كِدة، وعَدّيتهالك!

أنهىٰ حديثه، تزامناً مع ابتعاده عنها على مَضض..

فقد كَان ذاك العِناقُ لَهما، لَيسَ مُسكِّناً للآلامِ فقط.. بل ماحِياً لكُلِّ النُّدوبِ والنتوءات، التي تَركها السابقون بقلبَيهما!

ابتلعت ريقها، وهي تُحاوِلُ التحكّم بتهدّج صوتها، قائلةً بنبرةٍ مُضطربةٍ:
- أنا والله مكنتش أعرف إني هضايقك لمّا أكلم الزفت ده. بس والله أنا يوم ما أنتَ رُوحت معاهم، أنا كُنت متوترة ومش عارفة أتصرّف ازاي.. وكنت حاسّة جامد إن "شهاب" ورا الموضوع ده، عشان ليه عِلاقات كتير، ودايماً بيستغلها غلط!

زَفر "عُديّ" مرةً أخرى بضيق وحَنق!
يشعرُ بغضبٍ لا مُتناهٍ، يتملّكُ مِنه عِندَ تذكُّره أنها حادثت ذلك الوَغد!

هو متأكدٌ أنه لن يشعر بذات الغضب، لو أنها لجأت لمُحامٍ ما، أو واحدٍ من الحارة يُساعدها.. والسببُ أنه لا يأمنُ عليها أو على "يُوسُف" من "شهاب"!

أما عَن عَقلِ "عُديّ"، فقد كان بوادٍ غيرَ الذي هو بِه..

حيثُ كان يغمزُ بطرفِ عينه للقَلبِ، هامِساً وهو يَظنُّ أن صاحِبهما غافِلٌ عَنهما:
"أرىٰ أنَّكَ تخافُ عليها.. بَل وتَخشىٰ فِكرة أن تنفصلا! يا لَكَ مِن قَلبٍ لَعوب!"

فَيُجيبه القَلبُ بهدوءِ مَن أُذي كَثيراً:
"صَدّقني، لن أُنكِر يا عَزيزي.. فأنا وإن كُنتُ لا أُكِنُّ لَها مَشاعِر الحُبّ، فيَكفيني مَعها المَّودَّة وسَكَن النَّفس!"

استحسن "عُديّ" تِلكَ الإجابة الجَميلة من فؤاده، ولم ينتبه لصوتِ "ريتاچ" وهي تُحادِثه.. إلا حين هَزّت ذراعه تُنبِّهه بحنق..

نظر لها، وهو يعتذرُ قائلاً:
- معلش، سَرَحت شوية.. كُنتِ بتقولي ايه؟

تأففت، وهي تسأله ببعض الخَوفِ عادَ لقلبها مُجدداً:
- هنعمل ايه دلوقتي؟

- قبل ما أجاوبك حابِب أسألك، أنتِ من جوّاكِ عايزة ايه؟ لاحظي إن إجابتك هتحدد حاجات كتير أوي!

جاوَبها بذلك السؤال، وهو يشعرُ بتوترٍ من إجابتها..
إلا أنها أراحته، حين قالت بخفوتٍ بعدما تنهّدت:
- أنا عايزة أكون مِتطمّنة يا "عُديّ"!
مش عايزة أكون طول الوقت خايفة على نفسي، وعلى "يُوسف" وماما!
عايزة حياتي تكون مُستقرّة وهادية، من غير خوف وتوتر وقلق وترقّب وانتظار أي مُصيبة تِحصل.

نظر لها بعينين تقطران شفقةً وحُزناً.. قبل أن يُجيبها بحزم وهو يستعدُّ للقيام من مكانه:
- يبقىٰ نعدّل السؤال لـ"هتعِمل ايه دلوقتي"، وهتركني أنتِ و"يُوسُف" علىٰ جَنب لحد ما أتفاهم أنا مع المِش مُحترم ده بمِعرفتي!

ثم تركها، مُتجهاً تجاه باب الغُرفة.. وقبل أن يفتحه ويخرج، نَظَر تجاهها قائلاً بهدوء:
- ادعي يا "ريتاچ" ربنا يطمّن قلبك، ويرتّبلك حياتك..
ولعلّ وعسىٰ تستقرّ حياتنا سَويّاً، مع بعضنا!
ثم خرج من الغُرفة، تارِكاً إياها بقلبٍ يطرقُ من حديثه الباعِث على الاطمئنانِ والسُكون!

*****

خَرج "عُديّ" للخارِج، حيث رأى والدته تجلسُ بصُحبة صديقه الصَّغير ووالدة "ريتاچ"..

حيثُ تجلسُ المرأتان على أريكةٍ واحدة، تتحدّثان بملامح وجهٍ مُختلفة، بعدما عادَ غائبهم..
و"يُوسُف" الجالسُ على الأرض، يُتابع برنامج الرسوم المُصوّرة (الكارتون) على التِّلفاز..

ما إن رأته والدته، واقفاً ينظرُ لـ"يُوسُف" باتّساعٍ وبعضِ التأثر.. حتى ابتسمت هي ونزلت دمعةٌ من عينها!
كان الاثنان لا إرادياً، قد أتىٰ لذِهنهما أنَّ الله ﷻ بحِكمته، قَد ابتلىٰ "عُديّ" في نِّعمة الإنجاب..
وابتلىٰ "يُوسُف" في نِّعمة الأب..

ليكون بين الاثنين ترابطاً رَوحياً.. ويكون "يُوسُف" ابناً لـ"عُديّ" لم يُنجِبه..
ويكون الأخيرُ أباً للآخر، لم يأتِ بِه..

ويَكون الاثنان صَديقَين، يُحبّان بعضهما.. كُلّاً مِنهما سَندٌ للآخر!

- بابا "عُديّ"، تعالىٰ اتفرّج معايا!

صاحَ بها "يُوسُف" بحماسٍ، فاتّسعت ابتسامة الآخر وهو يقتربُ منه، ويجلسُ بجانبه على الأرض قائلاً بمرح:
- احكيلي، بتتفرج على ايه؟

التفتَ له الصّبيُّ، وهو يشرح له قِصّة الفيلم الذي يتحدّثُ على بطلٍ خارِقٍ، ذو قُدراتٍ غريبة أتىٰ من كوكبٍ غريب.. وهو مُعرَّضٌ للخَطر..

كان "عُديّ" يستمعُ له، وما إن أنهىٰ الصبيُّ حديثه، سأله بهدوء ورَوّية:
- طب أنتَ بتتعلّم ايه من الفيلم؟ بِمعنىٰ أصحّ، ايه الأخلاق والقِيَم اللي بتخرج بيها منه؟

انتبه "يُوسُف" له بكامِل حوّاسه، وطَالَ صمته.. قبل أن يقول بحرج:
- مفيش!

أخذَ "عُديّ" نَفساً عَميقاً، قبل أن يتحدَّث ببساطةٍ، يُحاوِل إيضاح وجهة نَظره للصغير:
- طيب! واحنا كـ مُسلمين، أوّل ما سنُحاسَب عليه ايه؟ "عن عُمرِه فيما أفناه، وعَن شَبابِه فيما أبلاه، وعَن مالِه من أين اكتَسبه، وفِيمَ أنفقه".

صَمتَ "عُديّ" لثوانٍ، حتى يتأكّد أن الصَبيّ لا يشعرُ بملٍ، ويفهم ما قاله..

وحِين رأى الاهتمام بنظراتِ "يُوسُف"، لسماعِ حديثٍ جميلٍ آخر، بأسلوب صديقه اللطيف.. ابتسم مُكمِلاً:

- يعني يا صديقي، هنُسأل عن وقت الفراغ بتاعنا..
استغلّيناه ازاي؟ طب استغلّيناه في شيء حَرام، ولا حَلال؟
طب لو شيء مُباح، هل المُباح ده أضاف لينا إفادة، ولا ضيّعنا بيه وقت وخلاص؟

ثم أخذَ نَفساً آخر، وأكمل بجِدّية:

- إننا نرفّه عَن نفسنا بحاجة مُسلّية، ده مش حرام ولا غلط..
بس نحاول بقَدر الإمكان تكون الحاجة دي، مش حرام..
وفي نفس الوقت تفيدنا..
تفيدنا في حياتنا، وفي ديننا كمان ياريت.

شَرد الصبيُّ بنظراته، يتشرّبُ قلبه حديث أحبَّ الناس إليه، بَعدَ والدته..
قبل أن يقوم بإمساك جهاز التحكّم، وإغلاق القناة التي تعرضُ ذلك الفيلم..

كانت المرأتان، تستمعان لذلك الحديث الذي قاله "عُديّ"..
وفِعل "يُوسُف" الجميل، بملامح وجهٍ مُبتسمةٍ فخور..

قبل أن يقول "عُديّ" بمرح:
- أنا بقا عندي ليك فيلم هيعجبك أوي.. وبيتكلم برضو عن شخصيّة بطوليّة، بس أجمل بكتير من الشخصيّة الخياليّة دي!
بس الأول هننزل نصلي العِشاء، عشان قَرّبت تأذن..
ونيجي بقا نحضّر سَهرة كِدة جميلة زيك!
شعر "يُوسُف" بسعادةٍ وحماسٍ يتدفّقان لعروقه.. وأسرع بإلقاء نفسه على "عُديّ"، مُحتضناً إياه بقوّة..
عَلَت ضَحكاتُ "عُديّ" بمرحٍ، وهو يستلقي على الأرض، مُحتضناً الآخر.. وهو يملأ قلبه بتِلك المشاعر والأحاسيس التي يفتقدها كليهما!

ومن بعيد، حيثُ وقفت "ريتاج" بقلبٍ ينبضُ، وعينان تلمعان من التأثر لذلك المنظر الذي يُحيي القُلوبَ الجَريحة..
تبادَلت مع والدتها نظرةً من نوعٍ خاصّ..
نظرةً تَعني، أن "عُديّ" هو مَكسبُها وابنها في تِلك الحياةِ الثَّقيلة..

*****

في طريق عَودتهما من المَسجد، مَرَّ "عُديّ" على مَحل بقالة.. ثم جعل "يُوسُف" يختارُ مِنها ما يُحبُّه..
وقد أخبَره أيضاً أن يجلبَ لوالدته شيئاً تُحبّه..

وبعد ربع ساعةٍ، دخلا للمنزل وبيد "عُديّ" أكياسٌ مَليئةٌ بالحَلوى والمُقرمشات، لسَهرةٍ لطيفةٍ سيقضونها..

رُغم أن لديه عملاً بالغد، ولكن كُلُّ شيءٍ يَهونُ في مُقابلِ قَضاء وقتٍ لطيفٍ، بصُحبة أسرته!

نادىٰ "عُديّ" على صديقه الصَّغير، قائلاً بابتسامة:
- غيّر هدومك، واسبقني عند التلفزيون يا جميل الاسم والملامح!

وبعد عشر دقائق، كان الجميع يجلسون بغرفة المعيشة، في انتظار "عُديّ"، الذي كان يُوصِل الانترنت بالتِّلفاز..

دَقيقةٌ أخرىٰ، وجلب "عُديّ" فيلم "عُمر المُختار"..
وقبل أن يبدأ الفيلم، التفت "عُديّ" تجاه "يُوسُف"، قائلاً بابتسامة:
- ده بقا يا سيدي بَطل.. بس بطل حقيقي، مش خيالي.. وبيحاول بِنقذ وطنه على فِكرة من إيد المُحتلّين!

ثم ضغط على (تشغيل).. وهَمس للصَبيّ بمرحٍ وهو يغمز:
- وهنشوف يا عَمّ مين فيهم الأجمد!

كان الجَميع جالسين، يُشاهدون الفيلم المُمتع الذي يُوضّحُ حياة أسدِ الصَّحراء، الشيخ عُمر المُختار الليبيّ..

كانت والدة "عُديّ" تجلسُ على كُرسيّ بمُفردها..
ووالدة "ريتاچ" على كُرسيّها الخاص..

بينما يجلسُ "يُوسُف"، بين والدته وصَديقه.. يُشاهد الفيلم باستمتاعٍ وشَغف!

ثوانٍ، واقترب "عُديّ" برأسه ناحية "ريتاچ"، وهمس لها بجِدّية:
- ابقي عَرفّيني عِنوان المِش مُحترم إياه، عشان أروحله وأتكلم معاه راجل لراجل..
ده إذا كان هو كدة فعلاً!

*****

12- لِقاءُ رَجُلٍ، وَوغد!

"لا تَكُن ذاكَ الأحمق الذي يبخسُ مشاعر من أحبّوه،
ويُسرِفُ في حُبِّ أُناسٍ لا يَعني لَهم شَيئاً!"

- جيفارا.

*****

في اليوم التالي، استيقظ "عُديّ" مع صوتِ المُنبّه في توقيت الفَجر..
تَمطّى في رَقدته، ثم اعتدل جالساً حيثُ كان ينامُ على الأريكة..

ابتسم وهو يتذكّرُ البارِحة.. فلولا سقوط "يُوسُف" في النّوم، وذهابُ "ريتاچ" للنومِ بجانبه..
لكان الآن ينعمُ بحضن صغيره!

ذهب للحمام، ليتوضأ ويتجهّز للصلاة.. ثم بعدها يُوقِظُ أهل بيته..

بعد عشر دقائق، وبعدما ارتدى "عُديّ" ثيابه.. كان يقفُ أمام باب الشَّقة، مُنتظراً "يُوسُف" التي كانت والدته تُساعده في ارتداء ثيابه..

دقيقةٌ أخرىٰ، وخرج الصبيُّ وهو يسيرُ ببطءٍ من شعوره بالنُّعاس، قبل أن يُمسك بيد "عُديّ"..
بينما الأخيرُ يبتسمُ بهدوء..

- خَلّوا بالكم من نفسكم!

قالتها "ريتاچ" بسُرعةٍ، وهي تلحقُ بهم قبل أن يُغلق الباب..
فابتسم "عُديّ" باتّساعٍ، قائلاً وهو يُشاكِسها:
- حاضر والله، هخلّي بالي من "يُوسُف".. مش ده قصدك؟

لم تَلحظ "ريتاچ" أنه يمزحُ معها، فأجابته بخفوت تُصحِّحُ له:
- أنا قصدي أنتوا الاتنين!

ولم تُمهله، فأغلقت الباب.. مُتكأةً برأسها عليه، وهي تُفكر..

ما بها؟!
لِمَ أصبحت حَسّاسةً هكذا؟!

لِمَ شعرت بالاستياء، وقررت أن تُوضِّحَ له؟!

والسؤال الأهم.. هل هي تُكِنُّ له شيئاً؟

وعِند السؤال الأخير، شعرت برجفةٍ بقلبها.. وقد أخذت تتذكّرُ تلقائياً مواساته لها، لُطفه معها.. شُعوره بالضِّيق حين يشعرُ بحُزنها منه!

وتنهّدت..
تنهيدةً تنبعُ مِن أعماقها، لتِلكَ المشاعر والأفكار التي اجتاحتها!

ثم اتّجهت للغُرفة، وقررت أن تُصلي وتَدعو الله بما أخبرها به "عُديّ" أمس..

*****

أما عِند "عُديّ"، فقد أجَّل أفكاره إلى ما بَعدَ الصَّلاة..
حيثُ أنه ما إن نزل على السُلَّم، سَمع صوتَ الإقامة..

نظر لـ"يُوسُف"، فكتم ضحكةً كادت تخرجُ على شكله ذو العينين المُغلقتين من النُّعاس..
قبل أن يقول له بمرح:
- تِحبّ أشيلك، ولا هتعرف تِمشي لوحدك؟

نظرَ له الصَبيُّ لثوانٍ، حتى يستوعب ما قاله.. ثم اجابه بصراحةٍ يُحسد عليها:
- ولو قلتلك إني هعرف أمشي، بس عايزك تشيلني؟

- يبقىٰ تحت أمر جميل الاسم والمَلامح!

نَطقَ بها "عُديّ" بابتسامةٍ واسعة، قبل أن يقف من مكانه، ويحمل "يُوسُف" واضعاً إياه فوق كتفيه..

ما إن خرجا من المسجد، كان الجوّ جميلاً ما بين عَتمةِ الليل، وبَدءِ شُروق الشَّمس..
حتىٰ الهواءُ كان نقياً، لم يتلوّث بعدُ بنفوسِ البَشَر!

- الأجواء عاملة ايه عندك فوق؟

قالها "عُديّ"، وهو يضحكُ بسُخرية وينظرُ للأعلى..
فأشار له الصَبيُّ بإبهامه أن كُلّ شيءٍ جيّد، وهو يُكملُ نظره للشارِع الهادئ بعينيه..

أما "عُديّ"، فقد كان يسيرُ ببطءٍ بعض الشيء، نظراً لحمله "يُوسُف"..
ونظراً لكاحله الذي لم يُعِره اهتمام، في سَبيل سعادة الصَبيّ!

هذا البطء ساعده في استرسال أفكاره التي كَبتها لأجلِ الصَّلاة..
فابتسم باتّساع، وهو يتذكّرُ حين سأل "ريتاج" عن محلّ إقامة "شهاب"..
فرفضت بشِدّةٍ أن تُخبره، حتىٰ لا يؤذيه الآخر!

واليوم، حين أخبرتهما أن يهتمّا لذاتِهما!

سَرىٰ بداخِله شُعورٌ لطيف، أن هُناكَ من يهتمُّ لأمرك!

وصلَ للعمارة، وهو يميلُ بجسده حتى لا يصطدم "يُوسُف" بحافة الباب..

قبل أن ينظرَ إليه، قائلاً بمزاح:
- لو طلعنا بالمنظر ده، وبرِجلي دي.. مش بعيد احنا الاتنين ناخد السِّلّم بالحُضن!

ضحك الصَبيُّ على تعبيره، قبل أن يحمله "عُديّ" بذراعيه، مُنزِلاً إياه على الأرض..

دقيقتان، وكان "عُديّ" يفتحُ باب الشَّقة بالمُفتاح، وهو يُوصي "يُوسُف" قائلاً:
- أنا هروح الشُّغل النهاردة، عايز أرجع ألاقي ماما مبسوطة منك، ومخلّص كُلّ واجباتك.. عشان محضّرلك مُفاجأة بإذن الله.

انهال بعدها سيلٌ من أسئلة "يُوسُف" الفضولية، عن كُنه المفاجأة، وهل هي جميلة، وهل هي كبيرة!

فيما كان "عُديّ" يهزُّ رأسه ضاحِكاً على أفعال الصغير..

دخل غرفته، ليتجهّز للذهاب للعمل..
أخرج قميصاً أبيض ذو نقوش، وبنطالاً من الچينز..

وقبل أن يبدأ بتبديل ثيابه، وجد باب الغُرفة يُفتح باقتحام، تزامناً مع صوتِ "ريتاچ" الحانِق:
- ممكن حضرتك تقولي ايه اللي "يُوسِف" قالـ..

اختنقت الكلمات بحلقها، وهي تراه واضعاً يديه على طرف ثيابه العُلوية، استعداداً لتبديلها..

أعادَ يديه، وثيابه.. مُبتسماً باتّساعٍ وخُبث وهو يرى وجهها الذي تلوّن بالأحمر، واضطرابها وتلعثمها الواضحَين وهو تعود للوراء قائلةً:
- أأ أنا آسفة إني دخلت من غير ما أخبّط!

وما كادت تخرج من الغُرفة، حتىٰ ناداها قائلاً بابتسامة، وهو يقتربُ من موضع وقوفها:
- استني يا "ريتا"!

تصنمّت بمكانها، ويكأن لجسدها حياةٌ خاصّةٌ به!
فقد كان قلبها يُقيمُ حفلاً صاخِباً بالدّاخِل، حيثُ سَمعت تدليله لاسمها!
وقدمها التي لا تَقوَ على الرَّحيل، لأنها تعلمُ جيّداً أنها ستسقطُ مغشيّةً عليها!

هزَّ الآخرُ رأسه بيأسٍ، وهو يُمسكها من ذراعها ليُدخلها الغُرفة.. ثم يُغلق الباب خلفه..

وضعها على السَّرير، وهو يرأفُ بحالتها..
ثم جلسَ بجانبها، وقال بمزاح، وابتسامةٍ جميلة:
- طبعاً هعدّيلك موضوع أنه "يُوسُف" مش "يُوسِف"! بس يا ترىٰ أنا عملت ايه المرّادي.. حاولت أخطفه بردو؟

أنهىٰ حديثه بمرح، وهو يسخرُ من ذواتهما.. فقالت هي بنبرةٍ مُنفعلة بعض الشيء، وهو تُشيرُ لقدمه:
- رِجلك اتلوت، وشايله فوق كِتفك؟! هو "يُوسِـ.. "يُوسُف" صُغيّر!

وصَلَت له رسالتها، التي تقولُ مُباشرةً وبلا أدنىٰ تزييف:
"أيها الاحمقُ، أنا خائفةٌ عليكَ!"
فابتسم سائلاً إياها، وهو يُمسكُ بكفّها الذي تُشير به:
- خايفة عليا؟
اضطرب بؤبؤها وهي تتحاشىٰ النَّظَر لعينيه وقالت بمراوغةٍ، ونبرةٍ مُتلعثمةٍ.. وهي تسحبُ كَفّها منه بهدوء:
- مينفعش تضغط على رِجلك، عشان حالتها متدهورش أكتر من كدة.

وقامت من مكانها، مُتجهةً للخارِج..
أرادَ أن يقولَ شيئاً، فصاحَ بشيءٍ آخر قبل أن تخرج:
- هكررها تاني، "يُوسُف" بالنسبة لي حاجات كتير أوي، ومش هتردد أقطفله نجوم السَّما لو عايزها!
ألقت عليه نظرةً خاطفةً، قبل أن تُغلق الباب بعدما خرجت..

أخرجَ "عُديّ" تنهيدةً حارّةً وهو يقومُ من مكانه ليرتدي ثيابه..

تمنّىٰ لو أنه أخبرها، أنه إذا أرادت هي القَمَر ذاته، فلن يتوانىٰ ثانيةً عن تَلبية طَّلبها!

وَدَّ لو باحَ لها أنه يأنسُ بوجودها، ويُحِبُّ قُربها، ويطمئنُّ قلبه مع ابتسامتها!

أرادَ بشِدَّةٍ أن يُخبرها أن تَكُفَّ عَن وَضع الحُدود بينهما..
وأنه، وحتىٰ بَعدَ انتهاء تِلكَ المُعضلة.. لن يتركها ترحلُ بسهولةٍ، وتُخلِّفَ وراءها مكاناً فارِغاً..
لَيسَ فقط في مَنزله، وغُرفته..
بل بِقَلْبِهِ أيضاً!

*****

بعد مُدّةٍ لَيست بالقصيرة، نَزل "عُديّ" من المواصلات العامة..
ثم سَارَ بعدها لدقائق أخرىٰ، حتىٰ وَصل لمبنىٰ المَّدرسة وهو يبتلعُ ريقه بتوتر..

مُترددٌ بين إخبار مُدير المَّدرسة بما جَرىٰ له في تلك الأيّامِ التي تغيّبها..
أو تقديم اعتذاراته دون إخباره بشيء!

إنَّ مُديره ذو شخصيّةٍ صارِمةٍ عمليّة، ورُبّما لن يقبل باستمرار "عُديّ" في العمل، إذا ما عَلِم الأمر!

تنهّد "عُديّ" بقلّة حيلةٍ، وهو يدخلُ من البوّابة.. بينما قلبه يرجُف داخل أضلعه من التوتر والقلق!

لو فَصَله المُديرُ من عمله، فهي الضَّربةُ القاضية له.. يجبُ أن يستعين بالله، ثم يتحلّىٰ بالحِنكة والذَّكاء في ردوده..

في طَّريقه لمكتب المُدير، كان يُحيّي الكثير من زُملائه..
وكُل ما يتكررُ هو سؤالهم عن تغيّبه هكذا، وإجابته بأنه كان مشغولاً للحدِّ الذي مَنَعه عن الذَّهاب لعمله!

طَرقَ الباب المَفتوح، بأصابع بارِدة من التوتر.. ثم دخل للمكتب مُحيّياً المُدير برأسه..

- تعالىٰ يا مسيو "عُديّ"، واقفل الباب وراك!

قالها المُديرُ بنبرةٍ هادئة..
فعادَ "عُديّ" حيثُ الباب، يُغلقه بهدوء وهو يتحدّثُ بداخله أن رُبّما هذا الهُدوء، هُدوء ما قَبل العاصفة!

جَلس على الكُرسيّ القابع أمام المكتب، وما كادَ يتحدّثُ، حتىٰ قال المُدير بجِدّية:
- تِحب أكلمك بصِفتي مُديرك، ولا كأني والدك؟

ابتلع الآخر ريقه مُجيباً وعيناه تتصفّحُ ملامح وجه مُديره بقلق:
- شَرف ليّا طبعاً إنّ حضرتك تكلّمني كأبّ.

شَبك المُدير أصابع كفّيه، واضعاً إياهما تحت ذقنه وهو يقولُ بنبرةٍ هادئةٍ، لم تَخلُ من حَزم رُغم ذلك:
- اسمع يا ابني، أنتَ بقالك معانا هنا قُرب السبع سنين..
دايماً كُنت مُنظّم ومُلتزم بشُغلك زي الفُلّ..
وأنا هراعي ده، ومش هحاسبك على الأيام اللي غيبتها.

لم يتحدّث "عُديّ"، بل اكتفى بنظرةٍ صامتة، تحملُ من معاني الامتنان والشُّكر الكَثير.. فالتقط المُدير النَّظرة، إلا أنه استعاد شخصيته الصَّارِمة قائلاً:

- مش هسألك طبعاً عن سبب الغياب، لأني مُتأكد إنها ظروف خارجة عن إرادتك..
لكن لو تكرر الموضوع تاني، مش هكتفي بالتحذير..
وهخصِم منّك على طول!

أومأ "عُديّ" برأسه علامة الموافقة، قائلاً بامتنان، وهو يستعدُّ للقيام من مجلسه:

- حقّك.. وبجد مُتشكّر جداً لذوق حضرتك، وبإذن الله ربنا يبعد عني أي أسباب تمنعني عن إني آجي المدرسة.

هَزّ المُديرُ رأسه باستحسانٍ، مُشيراً له بكفّه بمعنى "يُمكنكَ الخروج".. دُونما كلمةٍ أخرىٰ.. فلم يكن بطبعه يُحبّ المَديح والمُجاملات، إلا أنَّ الحَقَّ حَقّ!

سَار "عُديّ" خارج المَكتب، وكُلّ ذرّةٍ به تحمدُ الله على تيسيره للأمر..
تذكَّر بابتسامةٍ خجول، أواخر الآيتين من سورة (الطّلاق)..

(... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجعَل لَهُ مَخرَجًا) [الطلاق: ٢]
(... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجعَل لَهُ مِن أَمرِهِ يُسرًا) [الطلاق: ٤]

خجولٌ، لأنه رُغمَ ذنوبه، وتقصيره كثيراً بحقّ الله..
إلا أنّ الله ﷻ، جَعل له مَخرَجاً!

ثم نظر لساعة يده، قبل أن يُسرع خُطاه للمتجر القريب من المدرسة..

سيعملُ على إدخال السعادة بقلوب أطفال فصله.. حمداً لله على لُطفه به..

ورُبّما على رزقه بـ"يُوسُف"، الذي أصبحَ ابناً له، لم يُنجبه..
وصديقاً له، رُغم فارق السِنّ بينهما..
وأخاً وسَنداً له، كما أصبحَ هو للصَبيّ!

*****

بعد انتهاء اليوم الدراسيّ، وخروج "عُديّ" من مبنى المدرسة..
لم يتّجه فَوراً لركوب الحافلة العامة.. بل تلكّأ قليلاً في سيره، مُخرِجاً هاتفه من جيب بنطاله..

بحث لثانيةٍ في الأسماء.. حتى وجدَ الاسم الذي بسببه، حَدثت له أشياءٌ ونَّقيضها!

التقىٰ بـ"يُوسُف"، وأحبَّه قلبه.. ورُغمَ ذلك تشاجرت معه "ريتاچ"!
استعانَ به صديقه الصَّغير، ولكنّه أصبح في القائمة السَّوداء لـ"شهاب" رُغم ذلك..

أمّا الشيءُ الأروَعُ على الإطلاق..
لا! هُما شيئان!

الأوّل، هو وجود "يُوسُف" معه، والذي اعتبره بمثابة والده، بسماحة صدر..

والثاني، هو رؤيته لجانبٍ آخر من "ريتاچ"!
جانبٌ لطيف.. تخشىٰ على من معها، رُغم بعض التصرّفات المُتهوّرة!
جانبٌ، جعلها بناظِره أنقىٰ وأجمل بكثيرٍ من زوجته السَّابقة!

"تباً! لا يجدُرُ بي مُقارنةُ تِلكَ الفراشةِ، بالأفعىٰ القديمة..
أوَلستُ هكذا أخونُها، وإن كان بذهني؟!"

هذا ما دارَ بخُلده، وهو يضغطُ مرةً أخرى على رقم "شهاب".. فالوَغدُ لم يُجِب بَعد!

ثانية..
ثانيتان..
ثلاث..

قبل أن يسمع الطَّرف الآخر، يُجيبُ بقدرٍ كبيرٍ من الخشونة والبرود بآنٍ واحد:
- مين؟!

أخذَ "عُديّ" نَفساً، يُحاوِل تهدئة ذاته حتى يكون الطَّرف الأقوىٰ.. قائلاً:
- معاك "عُديّ"! كُنت عايز نتقابل ونتكلم ضروري..
يمكن نوصل لحلّ وَسط ننهي بيه كُلّ العبثيات دي!
لا يعلمُ أحدٌ، ولا "شهاب" ذاته.. قَدرَ المُجاهدة التي وُضِع "عُديّ" بها، وهو يُقاوِمُ رغبته بالتَّحدّث بحِدّة وبُرود..
ورُبّما بعضُ السُّباب الذي لا يُجيده للأسف!

- تعالىٰ كافيه ( ).
قالها الآخر بنبرةٍ مُتغطرسة.. فشعر "عُديّ" برغبةٍ بإوساعه ضَرباً ورَكلاً..

غير أنه أجابه بذات نبرته، ويكأنهما داخل مُسابقةٍ لمن سيكون الأكثر بروداً:
- نُص ساعة، وتلاقيني هناك بإذن الله.

قبل أن يُغلق مُكالمته، في مُحاولةٍ لإثارة أعصاب "شهاب"!

أوَلم يبدأ الآخر حربَ البرود والاستفزاز؟ إذاً ليتلقَّ رَدَّ الفِعل!

*****

- خير؟!

قالها "شهاب" ما إن جلس أمام "عُديّ" وتفصلُ بينهما الطَّاولة..
نظرَ له "عُديّ" بحنق، قبل أن يقول مُباشرةً:
- عايز كام يا "شهاب" وتبعد عن حياتنا!

ضحكةٌ مُجلجلةٌ، صَدرت من فم "شهاب" بسُخرية، جعلت "عُديّ" يودُّ بشِدّة كسر فكّه..
انتبه "عُديّ" أنه، ومُنذُ تعرّفه على "شهاب".. أصبحَت الرغبات العدائيّةُ العنيفة، تُراوِد عقله..

- أنتَ فاكرني مادّي للدرجادي يا شيخ "عُديّ"؟!
قالها "شهاب" بنبرةٍ ساخِرةٍ في باطِنها، يصطنعُ البراءة في ظاهِرها..
فأجابه "عُديّ" بهدوءٍ وحَزم:
- وأنتَ فاكرني حقير لدرجة إني أطلّق مراتي من غير سبب؟!

كان الاثنان ينظران لبعضهما بتحدٍّ، ينتظرُ كُلٌّ مِنهُما الآخر أن يرضخَ له..

أحدُهما رَجلٌ، بكُلِّ ما في تلك الكَلِمة من مَعانٍ وصِفاتٍ جَميلةٍ ونَبيلة!
والآخرُ وَغدٌ، وأيضاً بكُلِّ ما في تِلك الكَلِمة من مَعانٍ وصِفاتٍ حَقيرةٍ وقَذِرة!

إلىٰ أن شَقَّ ذلك السُكون، صوت "شهاب" وهو ينظرُ للآخر بابتسامةٍ خبيثة بعدما عاد بظهره يستندُ على الكُرسيّ:
- 100,000 جنيه، وعشان أنا طيّب هدّيك مُهلة أسبوع تدبّر المبلغ.. عشان بردو حرام أنتَ مُدرّس!

ارتجَّ داخِل "عُديّ" بقوّةٍ من كِبَر المَبلغ بالنسبة له!

حاوَل قَدرَ المُستطاع أن يُسيطر على ملامح وجهه، كي لا يُشعر الآخر بالانتصار قبل أن يبتلع ريقه، ويُجيبه بهدوءٍ وبُرود اغتصبهما لصوته:

- بإذن الله وَحده، المبلغ هدّيهولك قبل يوم الاتنين الجاي كمان.. أهم حاجة تبقى أنتَ كمان راجل وميبقاش ليك دعوة بيهم!

اتّسعت عينا "شهاب" من الجِدّية والثِّقة بصوتِ "عُديّ"..
ووَدَّ بداخله لو أنه رفع المَبلغ عن ذاك..
إلا أنه مدّ كَفّه تجاه "عُديّ" قائلاً:

- وَعد!

ثم استقام من مجلسه، دون الاستئذان من الآخر حتى..
ورحل عن المكان بذات الكِبر والغرور اللذان دخل بهما..

بينما عِند "عُديّ"، فيعلمُ الله وَحده ما يشعرُ به من ثِقَل الهَمَّ على كتفيه!
زَفر بقوّة، وهو يستحضرُ دُعاء النبي ﷺ، والذي هو بحاجةٍ إليه بشدّةٍ الآن..
هَمسَ بصوتٍ يسمعه هو فقط:

- **"اللهم إني أعوذُ بِكَ من الهَمِّ والحَزَن، والعَجزِ والكَسَل.. وأعوذُ بِكَ من غَلَبةِ الدَّين وقَهر الرِّجال".**

ظَلَّ يُردِّدُ الدُّعاء بينه وبين ذاته، وهو يتّجه بخُطواته لباب الخُروج..

رَنَّ هاتفه، فظنَّ أنها والدته قد قلقت من تأخره..
فأخرج هاتفه من جيبه، وإذ بابتسامته تتسعُ على ثغره، وشعوره بالسَكينة يتخللُ جُنبات روحه..

- السَّلام عليكم!

قالها بابتسامةٍ هادئةٍ، ظهرت رُغم ذلك بنبرته.. بينما يُخبرُ سائق سيارة الأجرة التي استوقفها بمكانِ منزله..
أجابت "ريتاچ" بسُرعة، ونبرةٍ بها بعضُ التهدّج ورُبّما القلق:
- "عُديّ" أنتَ اتأخرت كدة ليه.. مامتك و"يُوسُف" قلقوا عليك!

نظر من النّافِذة، يهمسُ بعَبثٍ خجلت له الأخرىٰ:
- ومامت "يُوسُف" مقلقتش عليا؟!
اتّسعت ابتسامته حين قابله صمتها، الذي وَضَّح خجلها..
فأكمل حديثه بهدوء:
- عموماً، أنا جاي في الطَّريق بإذن الله.. كُنت في مشوار كِدة وقابلت واحد أعرفه.

لم يَدرِ لِمَ رَغِب بأن تستمرَّ المُكالمة إلى أن يصل للمنزل.. ثم يصلُ، ويجلسُ معها.. يحكي لها، ويسمعُ مِنها.. وفقط!

إلا أنها أجابته بقلق لا ينفكُّ من صوتها:
- قابلت "شهاب" صح؟ طَمنّي عَملّك حاجة؟ طب قالّك ايه؟!

رُغم حنقه واشمئزازه من ذكر اسم ذاك الحقير الذي قايض ابنه بالمال بكُلِّ بساطة.. إلا أنه لم يهتمّ سِوى لكلمة واحدة خرجت منها.. "طَمنّي عَملّك حاجة؟"

مَسح على لحيته الصغيرة، قائلاً بهدوء:
- حتى لو عملّي حاجة، بعد ما سمعت صوتك وهو قلقان عليّا كِدة.. هيروح أي ألم!

وقبل أن تسأله عن شيءٍ آخر، قال لها ببعض المُزاح والخُبث:
- هحكيلك لما آجي، ولا أنتِ شكلك مش عايزانا نتكلم في البيت؟

تلعثمت وهي تُبررُ له، فضحك هو بشِدّة، وطريقةٍ جعلت قلبها يرقصُ طَرباً..

قبل أن تُغلق المُكالمة، وتتجهّزُ لقدومه..
وقد قررت أن تُفاجئه بهيئتها التي ستختلفُ عن كُلِّ مرّةٍ رآها فيها..
ورُبَّما تُخبره أنّها ترغبُ باستمرار زواجهما!

*****

وبينما على الطَّرف الآخر، حيثُ كان يُمسكُ "عُديّ" بهاتفه بابتسامةٍ جميلةٍ ارتسمت على وجهه..

خَطَر له أنّ حديثه معها، جعله يشعرُ بسكونٍ وطُمأنينة..
رُغم أنّ حياتها بالأصلِ صاخبةٌ بعض الشيء مُقارنةً بحياته..
ورُغم أن بداية لقائهما كانت صاخِبة..
ورُغم أنه تعرّض لشيءٍ لم يتعرّض له مُطلقاً من قبل..

إلّا أنّ كُلُّ ذلك يتبخَّرُ مع نبرةِ صوتها القَلِقة دائماً..
وعسليّتيها الجميلتين..
ضغط "عُديّ" على خيار (تعديل الاسم).. قبل أن يمسح اسم "ريتاچ"، ويكتب بدلاً منه:

(زَوجِي، ورُوحِي.♡)

وبينما يضغطُ على حفظ الاسم، إذ وَصلت له رسالةٌ.. قد لَمَح اسم مُرسِلها، وهو "شهاب"!

عقد حاجبيه، فقد كانا مُنذُ قليلٍ معاً، فماذا هناكَ أيضاً؟!
فَتح الرِّسالة، ومَرَّر سوداوتيه عليها.. بينما شعور الصَّدمة يتفاقمُ مع كُلِّ حَرفٍ فيها..

جزءٌ كبيرٌ مِنه يُكذِّبُ كُلَّ حرفٍ، بجوارِحه كُلِّها.. وأنَّ "شهاب" يقومُ بالافتراء على "ريتاچ"!

فعلى أيّ حالٍ، قد أثبَت "شهاب" حقارته أكثر من مرّة..
وليسَ غريباً أن يقومَ باتّهامِ امرأة، بأنها كانت تُحادِثُ الشَّباب بوقتٍ ما.. وهي الآن على ذِمّة رجلٍ آخر!

*****

13- كأسٌ دوّارة!

"من الاغترار أن تُسيء، فيُحسن الله إليك، فتترك التوبة توهماً أنك تُسامح في الهفوات!".

- أبو علي الروذباري.

*****

صَعدَ "عُديّ" على السُلَّم، ورُغماً عنه لا تُبارحه تلك الرِّسالة التي أرسلها له ذاك الحقير!
يعلمُ الله وحده حجم المُجاهدة التي يُجاهِدُ بها شيطانيه، كي لا يُصدِّقَ حرفاً منها..

ورُغماً عنه أيضاً لا يدري حقاً، فهو بالفعل لا يعلمُ الكثير عن "ريتاچ"!

كان الحنقُ هو ما يتملَّكُ مِن جوارحه، وهو يفتحُ باب الشَّقة بمُفتاحه.. حتى أنه نَسي أن يرنّ الجرس ككلِّ مرة..
ولكن، من يلومه لانشغال ذِهنه؟!

ألقى السَّلام بصوتٍ عالٍ، حتي يُنبّه أفراد المنزل..
ثوانٍ، ووجدَ "يُوسُف" يركضُ نحوه بحماسٍ سعيد..

وفي ثوانٍ أيضاً، ألقىٰ "عُديّ" همومه بعيداً، وهو يلتقطُ الصغير، حامِلاً إياه.. قبل أن يُقبّله قُبلاتٍ مُتفرّقاتٍ بأنحاء وجهه..

كان الصغير يُخبره أنه فعلَ كما أخبره، وأنه أنهىٰ مُذاكرته وواجِباته..
وما كان من "عُديّ" إلا أن يبتسم بوجهه، ويصيحُ مُفتخراً بإنجازاته الصغيرة مِثله..

قبل أن يسأله:
- امّال فين ماما يا "يُوسُف"؟

وما كادَ يُنهي آخر حديثه، حتى رأى "ريتاچ" تخرجُ من الدّاخل..

ويا وَيلَ قلبه من مَظهرها!

شعرٌ أسود مُجعّدٌ بعض الشيء، وقد ظهرت عيناها العسليّتان أكثر، بذلك الكُحل الذي زيّنته بِهما..

مَظهرٌ بسيطٌ جِداً، إلا أنه سَرقَ أنفاسه وقلبه!

رُبَّما لأنها أوّل مرّةٍ يراها بشعرها، وتضعُ ذلك الكُحل الذي أُغرم به!

ابتلع ريقه، وهو يُسلِّمُ عليها بابتسامةٍ، وعينان تَجولان بكُلِّ راحةٍ على مَظهرها..
ناسياً أو مُتناسياً، ما أخبره به "شهاب".. والمبلغ المَطلوب!..

انسلَّ "يُوسُف" من بينهما بخُبثٍ، يعودُ للداخل..
فنظر "عُديّ" لأثره، وهو يضحكُ.. قبل أن يعود لينظر لها، وتحديداً عسليّتيها..

استجمع حروف اللغة، ونَحّى تردده وحرجه جانِباً.. مُظهِراً شخصيّة "عُديّ" المُخبّأة، وهو يقول بهمس:

- Merde, je suis tombé amoureux de tes yeux.. Y a-t-il un sauveur?

(تباً، لقد وقعتُ بعِشق عينيكِ.. فهل من مُنقِذ؟).

لم تفهم "ريتاج" بالطَّبع ما قاله، إلا أنها رجّحت أنه يمدحها، بسبب نظراته ونبرة صوته الهامِسة..
فاحمرّت وجنتاها..

ابتسم هو باتّساعٍ على خجلها، ويكأنها ليست أمّاً لطِفل!

أنهىٰ "عُديّ" سيادة الصَّمت، قائلاً بهدوء، بعدما أعادَ له شيطانه كلمات تلك الرِّسالة الحقيرة:
- بعد ما نتغدّى، حابب أتكلم معاكِ في كام نُّقطة كدة.

أومأت له "ريتاچ" برأسها، وهي تقول ببعض الحماس:
- أنا كمان عايزة أقولك حاجة مُهمة!

نظر لوجهها لثوانٍ، قبل أن يومئ برأسه بصمت وابتسامة فاتِرة بعض الشيء..
قبل أن يتّجه بخطواته لغرفته..

*****

- اشجيني، كنتِ هتقولي ايه؟

قالها "عُديّ"، وهو يجلسُ بجانبها على الأريكة بغُرفته، يُولي إياها جُلَّ اهتمامه..
ورُبَّما أيضاً كُلَّ قلبه!

فشعرت "ريتاچ" بالحرارة تكسو وجنتيها..
لِمَ الحديثُ صعبٌ هكذا؟!
كانت ستُخبِره أن يستمرّا، ولكن حروفها قد احتُبست!

رَبّت "عُديّ" على كفّها، يُنبّهها..
فحمحمت، قبل أن تقول ببعض التوتر والحرج:
- كنت يعني.. قصدت أقول.. بُص، أنا بقترح إنه يعني منتطلّقش بعد ما المُشكلة تِخلص!

راقَب "عُديّ" اضطرابها، وعسليّتيها اللتان تهربُ بِهما عَنه.. بابتسامةٍ هادئةٍ، ظلّت حبيسة قلبه!
فَكّر لثوانٍ، أنه من المُستحيل أن تكون تِلك الخجول في اعترافٍ ما.. هي ذاتها الـ...!

- "ريتاچ" أنا بحبّك فِعلاً!

جُملةٌ قالها "عُديّ"، أشعرت "ريتاچ" أن قلبها توقّف عن النبض لثانيتين!
لِمَ هي بحاجةٍ لمزيدٍ من الهواء؟!
لِمَ أصبحت تشعر بحرارةٍ طفيفة؟!

ولِمَ تشعرُ أنّ قلبها يتراقصُ طرباً مع جُملته؟!!

أما عِند "عُديّ"، فقد كان يُراقبُ صدمتها وعسليتيها المُتّسعتين.. باستمتاعٍ وبعض السعادة..
فأكمل بمرح:
- طب ايه، مش هتُردّي عليا بأي حاجة خالص؟!

لوّحت بكفّها الذي لا يُمسكه، أمام وجهها.. قبل أن تُجيب ولازالت آثارُ الصَّدمة عليها:
- يعني، وأنا كمان.. هما بيردّوا يقولوا ايه طيب!

ارتفعت ضحكاته عليها، ضحكاتٍ صدرت من أعماق قلبه ولا شَكّ!

قبل أن يحتضن كفّيها بين يديه بحنانٍ، ويقول بهدوء:
- بما إني قولت اللي عندي، وأنتِ قولتي اللي عندك.. حابب آخد رأيك في رسالة كدة وصلتني.

لم تعلم، لِمَ انقبض قلبها..
شعرت أن ما يقصده هو شيءٌ سيء!

وتأكد ظَنّها، هي رأت رسالة الحقير "شهاب"، وهو يقول:

"حبّيت بس أنبّهك، عشان احنا رجّالة زي بعض.. وبردو عشان تتأكد قبل ما تدفع اللي هتدفعه عشان تحميها واللي متعرفوش، إن "ريتاچ" دي أصلاً كانت بتتساهل كتير مع الشباب وقت الجامعة، وكمان بعد ما اتجوّزنا.. أنا عرفت ازاي؟ يباشا كنا مع بعض في نفس الجامعة، وأنا كنت بكلمها والدنيا عادي"

شعرت "ريتاچ" إثر تلك الرِّسالة، أن دَلواً من الثَّلج قد سُكِب فوق رأسها بكُلِّ قسوةٍ وعدم اكتراث!

أعادت الهاتِف لـ"عُديّ"، وهي تُناشِده بعينيها ألا يكون قد صَدَّق ما قاله ذاك الحقير..
ولم يُكَذِّب "عُديّ" خَبراً، وأسرع يقولُ بنبرته الهادئة الرخيمة:
- اوعي تُشكّي بس لثواني، إني هصدّق حرف واحد قاله الحقير ده عَنّك..

أسلوبه واضح جِدّاً، أنه بيحاول "يرمي بلاويه على الناس الكويسين".

الآن تستطيعُ "ريتاچ" أخذَ أنفاسِها بكُلِّ أريحيّة..
فأكمل "عُديّ" وهو ينظرُ لسريره ببعض الشُّرود:
- بس أكيد فيه سبب أنه يعمل كدة.. ليه يا "ريتاچ" ها؟

كان بجُملته تِلك، ويكأنه يُحفّزها على الدِّفاع عن نفسها..
وقبل أن تتكلم هي، قال وهو ينظرُ لعُمق عينيها:
- حابب أسمع مِنك، عشان بكره الخِداع.. ومُستحيل أيّ عِلاقة تُبنى على ذرّة شَكّ أو خِداع!

ساد الصمتُ لثوانٍ طويلة، ظَنّ فيها "عُديّ" أنها لن تتحدّث..
إلىٰ أن قالت بخفوت، وبعض التحشرج ظهر بنبرة صوتها:
- أنا و"شهاب" كُنا مع بعض في نفس الكُلّية.. كُنت مُعجبة بيه، شخص وسيم ولبسه مُهندم وتعامله شِيك..
كُنت بعيدة عن ربنا، ومكانش عندي أصحاب يوجّهوني أو ينصحوني..

صمتت تبتلعُ ريقها، وما يزالُ "عُديّ" يستمعُ لها..
يعلمُ تماماً سير الأحداث لتِلك البداية، ويُحاوِلُ جاهِداً أن يتمالك أعصابه وغضبه وغيرته التي بدأت تطفو..

- المُهم أنه في مرة كان بيسأل عن تلخيص لمادة مُعينة..
فا أنا بعتهاله برايڤت..
وطبعاً مرة في التانية بدأت المواضيع تخرج عن إطار الدّراسة، ومرة في التانية بردو بدأت المواضيع تتجه ناحية المشاعر.

قالتها "ريتاچ"، وقد بدأ صوتها يتغيّر صَوب البُكاء..
فلم يجد "عُديّ" بُدّاً، سِوى التربيت على ذراعها بلُطف..
وهو يُقاوِمُ جاهِداً، كُلّ المشاعر السلبية..

أكملت ببكاء:
- تعامله كان كويس معايا، بجد مش عارفة ليه اتغيّر كدة بعد الجواز..
كُل حاجة شَكّ، وجفاء، وقسوة.. بجد بكرهه، وبكره اليوم اللي عِرفته فيه!

زفر "عُديّ" الهواء من صدره بثِقَل..
الآن عَرَف الإجابة!

ضغط على كَفّ "ريتاچ" بمواساة، وهو يُذكّرُ نفسه أنها الآن ليست بحاجةٍ لتأنيب.. بل لتوضيح..

فقال بخفوت:
- الإجابة بكُلّ بساطة يا "ريتاچ".. (العِلاقات التي تبدأ بما لا يُرضي الله، تنتهي بما لا يُرضي أصحابها)..
مش هنتكلم كتير في النُّقطة دي، لأني أعتقد إنك عرفتِ أنه ما بينكما قبل الزواج ده كان حرام، وربنا مش راضي عنه!

- طب أعمل ايه؟ أنا تِعبت وزِهقت بجد!

قالتها بقِلة حيلة وقهر، فتنهّد مُجيباً عليها:
- جدّدي تَوبتك يا "ريتاچ".. جَدِّديها وادعي لربنا ﷻ، يغفرلك اللي فات، ويتوب عليكِ..
وربنا رحيم عفوّ غفور، وبإذن الله يتوب عليكِ ويغفر ليكِ، طالما طلبتِ العفو.

كلماتٍ بسيطة قالها، كانت بمثابة ضِمادٍ شافٍ لآلام قلبها!
ما يزالُ ذلك الرجلُ يخترقُ قلبها، من أوسع أبوابه!

لم ينتظر ردّاً مِنها..
ولكنها فاجئته، وفاجأت قلبه.. باحتضانه بقوّةٍ، وهي تُبلل كتفه بدموعها الدافئة..

وفي الواقع لم يُمانِع إطلاقاً..
بل لَفّ ذراعه، يمسحُ على ظهرها بحنانٍ ولُطف!

رُغم شعوره ببعض الضِّيق من ماضيها، إلا أنها بحاجةٍ للتربيت على قلبها في تلك اللحظة..

وبالتأكيد لن يُمانِع من فِعل ما تحتاجه "رُوحه"!

*****

14- دروسٌ في العَقيدة!

"كُنّا خَطَّين لا يَلتقيان..
والتَقينا!"

- عُديّ الجَمّال.

*****

انقضت باقي أيام الأسبوع، على ذات المِنوال..
"عُديّ" شارِدُ الذِّهن في كيفيّة تدبير المَبلغ.. و"ريتاچ" ووالدته اللتان تُحاولان إقناعه بمُساعدته ببعض المبلغ، ورفضه الشَّديد!
ولا ننسَ "يُوسُف" المُلتَصق به، مُبرراً ذلك، بأنه يُعوّض الأيام الفائتة!

حتىٰ أتىٰ يوم الجُمعة، اليومُ المُفضَّلُ لـ"يُوسُف".. خُصوصاً أن "عُديّ" أخبره بأنه سيشرحُ للأطفال اليوم، درساً في العقيدة..

استيقظ "عُديّ"، وهو يفردُ ذراعيه بقوّة، مُحاوِلاً التخفيف من تشنجات عضلاته، إثر نومه..

ثم ألقىٰ نظرةً بجانبه، حيثُ كان "يُوسُف" يتوسَّطُ السَّرير بينه وبين "ريتاچ".. قبل أن يضحك بخفوت، وهو ينظرُ لملامحهما الغافية، وهمس ويكأنه يُحادِثُ الصَّبيّ:

- محتاجين نشوفلك أوضة لوحدك، أنتَ كِبرت على الكلام ده.

أنهىٰ حديثه، وهو يطبعُ قُبلة على جبين كُلٍّ منهما بلُطف.. قبل أن يقوم من مرقده، ويبدأ الاستعداد لليوم..

*****

بعد رُبع ساعة، خرج من الحَمّام وهو يُجفِّفُ شعره بالمنشفة.. ثوانٍ وألقاها على الأريكة..
ألقىٰ نظرةً خاطفةً على زوجته، وصديقه الصَّغير بحنانٍ وقلبٍ مليء بمشاعرٍ كان يفتقدها..
قبل أن يتّجه لخزانته، ويُخرجُ منها جلبابه الأبيض..

وما كادَ يضعُ الطاولة المُخصصة لكيّ الثياب، حتى استيقظت "ريتاچ" إثر ذلك..
وضعت كَفّها على فمها وهي تتثاءب، قبل أن تتحدث إليه بأثرِ نعاسٍ في صوتها:

- مصحّيتنيش أكويلك ليه؟

انتبه لها "عُديّ" من أفكاره، فوضع المكواة على الطاولة، ونظر لها بابتسامةٍ، قائلاً بهدوء:
- مش بحب دور سي السيّد وأمينة.. طالما أنا صاحي وقادِر، ليه أتأمّر عليكِ؟!

نَبضَ قلبها لحديثه الذي يقطُرُ مُراعاةً ولطفاً..
حقاً هي محظوظة به!

ابتلعت ريقها، وهي تنظرُ إليه يُكملُ ما بدأه دون ضوضاء..
وقالت بابتسامة مُتأثرة:
- الحمد لله إنك أنتَ.. والحمد لله إنك حنيّن ولطيف كدة!

لم ينظر لها، لأنه حتماً لو فَعَل سيذهبُ لاحتضانها على حديثها الذي جعلَ قلبه ينبض بتسارع..
ورُغم ذلك، أكمل على قَولها بابتسامة:
- والحمد لله على وجود والدتي، اللي عَلّمتني أنه طالما الشخص قادِر يعمل الحاجة، ميؤمرش غيره!

تعلّقت عسليتاها به، وقد أزهرت بداخلها مشاعر حُبٍّ وامتنانٍ لوالدته.. التي أكّدت أن شخصيّة الرَّجل، تبدأ من تربية والدته له!

أخذت تدعو الله لها، وأن يُبارك في عُمرها.. قبل أن تسمع صوتَ "عُديّ" يقول:

- "ريتا" معلّش لو مش هتعِبك، ممكن تقوليلي اللي هيلبسه "يُوسُف" وأكويهوله بالمرّة؟

تخلّت "ريتاچ" عن مغناطيسيّة السَّرير حتى تعود للنوم، وقامت مُتَّجهةً لجُزء الخزانة الذي وضعت به ثيابها مع ثياب ابنها.. ثم أخرجت منه جلباباً أبيض جديداً، اشترته له مؤخراً..

اقتربت من مكان وقوف "عُديّ" وقالت:

- خلاص هكويه أنا، روح أنتَ شوف وراك ايه.

ابتسم بهدوء، قبل أن يُحاوِط كتفها بذراعه مُقرّباً إياها منه.. قَبَّل رأسها وهو يقول بمرح:

- سبيلي أنا المَكوَة، عشان عايزك تعمليلنا فِطار جميل زيك كدة، ماشي؟

نظرَ لعسليّتيها، فرآهما يستسلمان لقَوله.. فقَبَّل رأسها مُجدداً، وحَرَّرها لتذهب!

وقبل أن تخرج من الغرفة ناداها، وما إن التفتت له، حتىٰ قال بمرحٍ، وهو يغمزُ بعينه:

- متحطّيش عَسَل على الفِطار، كِفاية عيونك ووجودك معايا!

اتَّسعت عيناها من غزله، وشعرت ببدايات إغماء.. فانسحبت من أمامه وقد احتُبست الكلمات بحلقها، فضحك عليها بشدّة، وهو يستمتعُ بخجلها..

بعد عشر دقائق، كان أنهىٰ ما يفعله، فأعاد كُلّ شيء لموضعه..
اتجه للسرير لإيقاظ الصَبيّ، فوجده نائماً بطريقةٍ مُزرية!
فكّه مفتوحٌ، وشعره الفاتح الذي أخذَ في الاستطالة مُبعثر!

لم يستطع "عُديّ" تمالك ضحكاته، وهو يجلسُ بجانبه على السَّرير..

- "يُوسُف"، يلا يا جميل عشان نروح المَسجد.
قالها "عُديّ" بصوتٍ عالٍ بعض الشَيء.. فتمتم الصَّبيُّ بشيءٍ مُبهم، لم يسمعه الآخر جيّداً..

عقد حاجبَيه، وهو يضعُ كَفّه على وجنته، ويُكررُ ما قاله..

ثوانٍ، حتىٰ فتح الصبيُّ عينيه.. وثوانٍ أخرىٰ حتى اتّسعت ابتسامته لمرأىٰ من يُحِب!
تنهّد "عُديّ" براحةٍ، ما إن رأىٰ ابتسامة "يُوسُف"، فقد ظَنَّ أنه رأىٰ مُجدداً تلك الكوابيس بمنامه!

- صباح الخير، يا أجمل خير حصلّي في حياتي!

قالها "عُديّ" بابتسامةٍ واسعةٍ جميلة، فاستقام "يُوسُف" مُجيباً عليه بنفس لهجته:

- صباح الخير، يا أجمل وأحلىٰ أبّ وصاحِب وأخ، ربنا رزقني بيه!

رُغم بساطة الكلمات، إلا أنّها وَقعت في قَلب "عُديّ" مَوقِعاً عَذباً.. جعل سوداوتيه تدمع، وجَعل فؤاده ينبضُ بقوّة!
ولأن العِناقَ دائماً هو لُغةُ من لا لُغةَ له.. فقد سارَع "عُديّ" بجذب "يُوسُف" يحتضنه بقوّةٍ ولُطفٍ بذات الآن، يُحاوِل إخفاء دموعه عن الصَّغير..
قبل أن يأخذ نَفَساً، ويسأله بصوتٍ حاوَل أن يجعله عاديّاً:

- أنتَ كُنت متضايق وأنتَ نايم؟

ابتعد عنه الصَبيّ، وهو يعقدُ حاجبيه ويُجيبُ بعدم فهم:

- تقصد يعني جنبك أنتَ وماما؟ لأ خالص!

هزَّ "يُوسُف" رأسه بنهاية حديثه علامة النَّفي، فكتمَ "عُديّ" ضحكةً يائسةً كانت على وَشك الخُروج.. وهو يُصحِّحُ له:
- أقصد في الحِلم، كان فيه حاجة ضايقتك؟

هنا، وظهرت أمارَات الفَهم على وجه الصَبيّ، فأجابه بسُرعةٍ، وعيناه الزرقاوان تلمعان بسعادة:
- آه، لأ الحمد لله.. من ساعة ما بقيت بنام جنبك، ومش بحلم بأحلام وِحشة.

تنهّد "عُديّ" براحةٍ كُبرىٰ، تملَّكت من جوارحه.. إلا أنَّه صَحّح له مُعتَقَده، وهو يُمسكُ بيده.. وفي طَريقهما للحَمّام، تحدّث "عُديّ" بنبرته التي تمتلئُ باللِّين:
- بس مش أنا اللي بمنع عَنّك الضُّرّ يا "يُوسُف"! ربنا ﷻ وَحده هو اللي بيحمينا من أي حاجات وِحشة..
وهو وَحده القادِر على رَفع الأذىٰ عننا!
عشان كدة يا "يُوسُف" خلّي عَندك اليَقين والإيمان ده، واتفرّج بقا على لُطف ربنا ﷻ بيك.

ظَلَّ "يُوسُف" يُنصِتُ للآخر باهتمامٍ شَديد، حتى وهما يقفان أمام باب الحَمّام المُغلق..
قبل أن يُنكِس رأسه ببعض الخجل، ويعتذرُ لـ"عُديّ"..

الذي أسرع يرفعُ وجه الصغير بإصبعه، وهو يقولُ بابتسامة:
- متعتذرش، أنتَ معملتش حاجة غلط.. أنا بس بعلّمك حاجة تفيدك دلوقتي، وفي كُلّ وقت.. وعشان لما تفتكرها، تفتكرني معاها بدعوة حلوة زي اسمك وملامحك كدة!

أنهىٰ حديثه بمرح، وهو يغمزُ له.. قبل أن يندفع للوراء بتلقائيّةٍ، إثر احتضان "يُوسُف" له بقوّةٍ وهو يهمسُ له:
- أنا بحبّك أوي يا بابا "عُديّ"!

بادَله "عُديّ" العِناق، وهو يُجيبه بصِدق وبعضِ التأثر:
- وبابا "عُديّ" بيحبّك أكتر، وهيفضل طول عُمره بيحبّك، فخور بيك.. وفرحان إنك في حياته!

*****

سارَ "عُديّ" مع "يُوسُف" باتّجاه المَسجد.. وكُلٌّ مِنهما يُمسكُ بيد الآخر..
كان "عُديّ" يشعرُ براحةٍ وسُكونٍ.. خُصوصاً بعدما قَضىٰ ذلك الوقت اللطيف برِفقة عائلته الصَّغيرة.. بين شِجارٍ لطيف، أو سُخرية مُحبَّبةٍ.. أو حتىٰ نِّقاشات مُمتعة!

ما إن وَصلا لباب المَّسجد، حتى خَلع حذاءه وانتظر "يُوسُف" حتّىٰ يفعل المِثل..
ثم سارا معاً، إلى أن توقفا عند الصفوف الأولىٰ، وهمس "عُديّ" للصَبيّ بابتسامة:
- صلاة تَحيّة المَسجد الأول، زي ما اتعوّدنا.
أومأ "يُوسُف" برأسه علامة "أن ذلك شيءٌ مَعروف"، قبل أن يقفَ باستواءٍ ويبدأ في الصَّلاة..

*****

(لِمَن لا يَعلم، صَلاة تحيّة المُسجد عبارةٌ عن ركعتين "مِثل صلاة الفجر مثلاً، ولكن باختلاف النِّيّة طبعاً"..
تُصلّىٰ عِند دُخول الشَّخص للمَسجد -ما لَم تُقام الصَّلاة المكتوبة"..
وهي للنِّساء والرِّجال على حَدٍ سَواء)

*****

بعد انتهاء الصَّلاة، جَلَس "عُديّ" يستندُ بظهره على العامود.. يُمِعنُ ذهنه لآخر مَرّةٍ في أمر تدبير النُّقود، قبل أن يتَّخذ قراره..

قبل أن تسكن أفكاره السَّلبيّة تلقائياً، ويبتسم باتّساعٍ وفَخر وهو ينظرُ لـ"يُوسُف"، الذي كان قد أخبره أنه سيذهبُ لجَلب الصِّبيَة للدرس!

جلسوا حَوله، بَعدما سلَّموا عليه بحَماسٍ وسَعادةٍ، أنه سيعودُ لإعطائهم تلك الدُّروس الصَّغيرة بعد صَّلاة الجُمعة..
وبعد اعتذاره منهم لتَغيُّبه كُلَّ تلك المُدَّة، وأنه قد تَعرَّض لبضعة ظُروف..

بدأ حديثه بنبرته الهادئة، مُتسائلاً بابتسامة:
- مين عارف ايه هي أركان الإيمان؟ حد يقولهالي؟

كان الصمتُ، هو المُجيب الوحيد عليه.. حيثُ نظروا له جميعهم نظراتٍ مُحرَجة..
باستثناء "يُوسُف" الذي كان يعلمُ مُسبقاً من إخبار "عُديّ" له.. إلا أنه صَمتَ بُناءً على رغبة "عُديّ" حتى يَدَع فُرصةً لغيره..

- أن تُؤمِنَ بالله، ومَلائكته، وكُتُبه، ورُسُله.. وباليومِ الآخِر، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرّه.

أكمل "عُديّ" حديثه، بذات النَّبرة الهادئة المُتمَهّلة، حتى يَدَعهم يستوعبون ما قَاله.. ثوانٍ، وأكمل مُجدَّداً:

- كُلّ مرّة بإذن الله، هنتكلم عن رُكن منهم.. يعني ايه بقا أن تؤمن بالله؟

يعني نؤمن إن ربنا ﷻ القادِر على كُلّ شيء.. هو الذي يرزقنا، وهو الذي يَسقينا، وهو الذي يرفعُ عَنَّا الضَرر، وهكذا.. وده اسمه (توحيد ربوبيّة).

كمان العبادات، زي الصلاة والصِّيام والأذكار.. بنعملهم لـ"مين"؟! لربنا وحده ﷻ.. وده اسمه (توحيد ألوهيّة).

وآخر نقطة في "توحيد الله ﷻ"، هو (توحيد الأسماء والصِّفات).. يعني أن الله وحده الذي يُسمّىٰ/ يُوصَف بالأسماء التي قالها ﷻ عن نفسه، أو قالها النبيّ ﷺ لينا.. والأهم "من غير ما نزوّد عليها، أو ننقّص منها.. أو نفهم المَعنىٰ بمزاجنا".

كان يعلمُ أن حديثه لن يثبت بأذهانهم الصَّغيرة بشكلٍ كافٍ.. وأنّه رُبَّما يشعرُ أحدهم بالضِّيق لذلك.. ولم يَشأ أن يحدث ذلك، فأعادَ حديثه بنبراتٍ بطيئة وهادئةٍ أكثر، وهو يُعطي لهم أمثلةً حتى يستقرَّ ما قاله بأذهانهم!

وبعدما أنهىٰ حديثه، وابتلع ريقه يُبللُ حلقه الذي جَفَّ من الحديث.. قال لهم مُطمئناً بابتسامة ومرح:

- ومتقلقوش، كُلّ مرّة بإذن الله هعيد اللي قُولناه تاني، أهم حاجة محدش يغيب!

ابتسموا له، وشَكروه.. قبل أن يقترب منه أحدهم بنظراتٍ حزينة، ويتحدّثُ معه بشيءٍ بصوتٍ خافت..

دقائقُ، وتنهَّد "عُديّ".. قبل أن يُخبره أنه سيحلُّ الأمر.. ثم يقولُ بلُطف:

- قبل ما تِمشوا، افتكرت حديث للنبي ﷺ.. بيقول: "لا يَحلُّ لمُسلمٍ، أن يُروِّع مُسلِمَاً".. حديث جميل، وبيوضّح قد ايه احنا كـ مُسلمين لازم نراعي مشاعر بعض، وحتى في الهِزار.. نتجنَّب تماماً إننا نخبّي من صاحبنا حاجة ليه، أو نُخضُّه فجأة بداعِي إننا بنهزر معاه!

صمتَ لثوانٍ، ينظرُ بطرفِ عينه لنظراتِ النَّدم ترتسمُ على وجه أحدهم..
قبل أن يُكمل بابتسامة:

- سُبُل الهِزار كتيرة أوي، بلاش يكون مِنها "إخافة مُسلم، أو تَرويعه".. اتفقنا يا أبطال!

هزّوا جميعاً رؤوسهم علامة الموافقة، قبل أن يستأذنوا مِنه للعودة لمنازلهم..

وعلى باب المَسجد، حيثُ وقفَ "عُديّ" بجانب "يُوسُف" بعدما ارتَدوا أحذيتهم..
قال "عُديّ" للصغير بمرح وهو يضحك:

- فاكر أوّل مرة قابلتك؟ كُنّا بنجري بعد الصلاة عشان مامتك متضايقش!

دلوقتي أنا ممكن آخدك نلفّ لحد بليل، ولا هتقدر تعملّنا حاجة!

بادله الصَبيُّ الضحك، وهو يستمتعُ بنون الجمع، التي أضافها "عُديّ" بآخر حديثه..
صِدقاً، هو سعيدٌ جِدّاً!

*****

بعد وُصولهما للمنزل، أخبر "عُديّ" الصغير أن يذهب ليُبدَّل ملابسه بأخرىٰ تصلحُ لزيارةٍ ما..
ثم تَركه، وذهب تجاه والدته التي كانت تجلسُ بغُرفة المَّعيشة، تقرأ في المُصحف الكبير..

- أجمل أُمّ في الدُّنيا، وحشاني والله!

قالها "عُديّ" بنبرةٍ مَرحة، لم تَخلُ من أدبٍ رُغم ذلك..
فنظر له والدته بحنقٍ مُصطنع، وهي تُجيبه:
- طبيعي هَوحَشك، ما هو من لقىٰ أحبابه، نسي أصحابه!

قهقه "عُديّ" بسعادة، ليسَ سُخريةً من والدته.. ولكن استمتاعاً لرؤية غيرتها عليه من زوجته وصديقه الصَّغير!
اقترب أكثر، مُحتضناً إياها من الجانِب، مُقَبِّلاً رأسها.. وهو يقولُ بابتسامةٍ وبعض المَرح:
- عيب عليكِ، وهو أنا ليا حبيبة غيرك؟! أنتِ حبيبتي، وهُما حبايبي من بعدك!

لم تستطع والدته تمالك ابتسامتها الواسعة، فابتسم هو على ابتسامتها..
قبل أن يلتفت بعينيه في الأرجاء، مُتسائلاً:
- امّال فين "ريتاچ" وطنط "مروة"؟!

وضعت والدته نظارة القراءة على عينيها مرةً أخرىٰ، بعدما خلعتها حين كانت تُحادِثه، وأجابته بهدوء:

- "مروة" بتحب تنام بعد ما تصلّي الظهر، و"ريتاچ" واقفة بتعمل الغدا.

أومأ برأسه بتفهّم، قبل أن يبتلع ريقه ويُخبرها ببعض التردد:

- أنا هروح النهاردة لعمّي، هشوف لو يعرف يدبّرلي حتى جزء من المبلغ.. مَكِداش، يبقى هبيع حتة الأرض اللي سايبها بابا الله يرحمه.

تمتمت الأم بالرحمة عليه، قبل أن تتنهّد وتُجيبه بقلّة حيلة:

- يا ابني ما أنا قُلتلك هبيع الدَّهب بتاعي، و"ريتاچ" و"مروة" مكانش عندهم مانع يبيعوا هُما كمان دهبهم، بل بالعكس هُما اللى قالولك وأنتَ عارف.. ليه بس مُصرّ على رأيك؟!

اغتصب "عُديّ" ابتسامةً، وأجابها قبل أن يقوم:

- رأيي إني مدخّلش سِتّات بيتي، اللي المفروض أمانة في رقبتي، ربنا ﷻ هيسألني عليها.. بأي مشاكل خارجية، وخصوصاً مادّية.. أستأذنك أنا بقا يا ماما.

أنهىٰ حديثه بأدبٍ، قبل أن يُقبّل رأسها ويطلب منها أن تدعو له..
وبالأحرىٰ هي لم تُكَذِّب خَبَراً، فَلِمَن ستدعو إن لم يكن له؟!

*****

قُرب آذان المَغرب، حيثُ أنهىٰ "عُديّ" حديثه مع عَمّه، واستقرَّ الرأي على البَحثِ عن مُشتَرٍ لقِطعة الأرض..

كان "عُديّ" يُراقبُ "يُوسُف" حيثُ جلبه لحديقة للأطفال.. ينظرُ إليه حيثُ يلعبُ مع باقي الأطفال، بابتسامةٍ سَعيدةٍ، وقَلبٍ يضخُّ بَدَل الدِّماء، مشاعر لطيفةً تسري بين عروقه! ورُبَّما بين حينٍ وآخر، يرفعُ هاتفه مُلتقطاً له صورةً لطيفةً للذِكرىٰ!

دقائق، ونادىٰ "عُديّ" على الصَبيّ، حتى يذهبا للاستعداد لصلاة المَغرب..

وفي الطَّريق، حيثُ كان "يُوسُف" يحكي له عن أقرانه الذي تعرَّف عليهم.. اهتزّ هاتف "عُديّ" بجيبه..
أخرجه، وما يزالُ ينظرُ للصغير بابتسامةٍ واسعة.. حتى وقعت عيناه على الرَّقم المُتَّصل، فامتعض وجهه بشِدّة..

- ها يا شيخنا، هترجّعلي بضاعتي امته؟!

قالها "شهاب" بتهكّمٍ واضح، معناه بوضوح سُخريته من مقدرة "عُديّ" على تدبير ذلك المَبلغ في تِلك الأيام المَعدودات..

إلا أنَّ "عُديّ" كعادته، كَسَر سُخريته وهو يقول ببرودٍ وابتسامةٍ خبيثة:
- تِحبّ أنتَ نتقابل تاخد فلوسك امته؟

كانت مُفاجأةً قويّة بحقّ وضَربةً قاصِمةً لغرور وسُخرية الآخر.. حتىٰ أنه لم يستطع سِوىٰ قَول:
- على مَعادنا يوم الاتنين عادي.

كادَ "عُديّ" يُطلِقُ ضِحكةً مُجلجلةً على اضطراب الآخر.. إلا أنه اكتفىٰ بإمساك زِمام الأمور وهو يُنهي المُكالمة بـ"بإذن الله!"..
قبل أن ينظر لـ"يُوسُف"، قائلاً بحماسٍ شديدٍ كأنه بنفس عُمُر الصَبيّ:
- واد يا أبو عيون زرقا أنتَ، هنصلي المَغرب ونروح الهايبر.. بُص، لو عايز تشتري الهايبر كُلّه، أنا تحت

أمرك.. وهنعمل سَهرة جميلة زي مَلامحك واسمك كمان بإذن الله!

شَعر الصَبيُّ بالتفاجئ، رُغم انتقال الحماس له من صديقه الأكبر..
لَم يعلم ما السبب الذي جعل "عُديّ" فجأةً يتحمّس ويبتهجُ وجهه، بعدما كان مُتجهّم الوَجه..

غير أنه قَطعاً، سعيدٌ لأن مِزاجَ والِده الاجتماعيّ، قد تَحسَّن عمّا كان مُنذُ ثوانٍ!

*****

كانَ "عُديّ" يستعجلُ يوم الاثنين بالمَجيء.. لَيسَ حُباً في اللِقاء، بل ليُلقي ذلك الجاثومُ الذي يجثمُ على سَعادتهم وراحة بالهم، المُسمّىٰ بـ"شهاب"!

استأذن "عُديّ" من مُديره قبلها أنه سيتأخرُ قليلاً لذهابه لعمل شيء مُهم.. ثم أمسكَ حقيبة النُّقود واستقلَّ سيارة أُجرة، مُتَّجهاً للمكان الذي اتفق مع "شهاب" فيه أن يَلتقيا..

كان لِقاؤهما مزيجاً بين البرود، والتوتر.. عدم التَّصديق، وعَدم الاكتراث..
وبالطَّبع واضحٌ جِداً أنّ "شِهاب" هو الذي حازَ على آخر اثنتين..

يشعرُ بالتَّوتّر أن رُبَّما يُخبّئُ له "عُديّ" غدراً ما.. وعَدم التَّصديق أنه أحضر له المال بكُلّ سُهولةٍ وبَساطة!

- اتفضَّل اللي يخُصَّك.. نتمنىٰ بقا تسيب اللي يخصُّني في حالهم!

بدأ بها "عُديّ" حديثه بهدوء أمَيل للبرود، وهو يضعُ الحقيبة بجانب قَدم "شهاب"!

وويكأن الآخر يرىٰ نُقوداً لأول مَرّة، فقد سارَع يضعُ الحقيبة على الطَّاوِلة، ويفتحها وهو يرىٰ النُقود المُتراصَّة فيها..
ويبدو أنه نَسي أين هو، ونَسي توتّره!

بينما كان "عُديّ" يُناظِره باشمئزازٍ واحتقار، قبل أن يتحدَّث إليه بنبرةٍ حاوَل جعلها عاديّةً، رُغم شعوره بالغيرة:
- بالنسبة لـ"يُوسُف"، أنتَ -للأسف- هتفضل والده.. وأنا بحاول أعلّمه دينه أكتر، فا أكيد مش هعلّمه كُلّ حاجة، وأسيب بِرّ الوالدين اللي -وبكرر أنه للأسف-، مَلزوم يتّبعه معاك.. لِذا، شوف يومين في الأسبوع نتقابل فيهم، وتقعد مع ابّنَك شوية.

يعلمُ الله وحده كَمَّ الضِّيق والغيرة، اللذان شعرَ بِهما "عُديّ"، وهو يقولُ حديثه ذاك..
غير أنَّ ذاك الحقير يظلُّ والده للأسف!

وعلى غَير ما توقَّعه "عُديّ"، نَظَر له "شهاب" لثوانٍ، قبل أن يُومئ برأسه علامة الموافقة.. فأومأ "عُديّ" في المُقابل، قبل أن يقوم من مجلسه..
تذكَّر شيئاً، فرفع إصبع السَّبابة بوجه الآخر، قائلاً بتحذيرٍ لم يُخفِه:

- وحِسَّك عينك تقوله أو تزرع في دِماغه أي مَرض من اللي في دماغك.. لأنه حتىٰ لو كُنتَ أنتَ والده اللي خَلّفُه، بس أنا هفضل والده اللي احتواه ورَبّاه وعَلَّمه وصاحبه.. فرق شاسع زي ما أنتَ شايف!

أنهىٰ "عُديّ" حديثه، وهو يضع يده لجانبه، ويرحَلَ من المَكانِ تماماً، مُتَّجهاً صَوب مدرسته..

*****

خَرج "عُديّ" من المَدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسيّ..
كانَ يشعرُ أنه خفيفٌ كطَيرٍ حُرّ، غيرُ مُكبَّلٍ بأصفادِ القَلق والتفكير!

قَرَّر أنه يجبُ أن يشتري هديّةً لكُلّ فردٍ من عائلته الصَّغيرة..
لَيس لسببٍ، إلا تعبيراً عن حُبِّه لهم!

*****

بعد ثلاث ساعات.. كان "عُديّ" جالساً مع زوجته في غرفته، بمُفردهما..
ينظرُ لها بابتسامةٍ واسِعةٍ شَغوف، بينما هي تقرأ ما كَتَبه لها بعينين تَلمعان بتأثر:

"لَيست مُذكّراتٍ، فإنّي لا أُحسِنُ كِتابَتها..
ولَيست خواطِر، فإنّي لا أُجيدُ صِياغتها..
وبالتأكيد لَيست شِعراً، فإني لا أعرفُ نَظم قوافِيه!

سَمِّها ما شئتِ، فإن أحببتِ، فسَمِّها فوَضىٰ كِتابيّة..

كأيّ رِحلةٍ تبدأ، بدأت رِحلتنا..
وكأيّ سَفينةٍ تُبحِرُ، أبحَرت مَركِبنا!

كُنتُ في نَظَركِ كمياهٍ هادئةٍ، وكنتِ تُمثّلين رياحاً عاتية!
وللنَّاظِر من بَعيدٍ، سيرىٰ أنّ تِلكَ الرِّياح ستؤثِّرُ بالسَّلب على المّياه، فتحوّلها لإعصارٍ مُدَمِّر!

أمّا بالنسبة لي، فقد كانت رياحكِ السببَ الرئيسيّ لأشرعَ بتسيير مَركَبِنا..
والسبب الأهمّ لجَعلي أشعرُ أنّني مياهٌ ذاتَ جَدوىٰ!

قرأتُ ذاتَ مَرّةٍ لكاتِبٍ يقول:

«كُنّا كخطّين، وبَعضُ الخُطوطِ يستحيلُ التقاؤها!»

لم أعلَم تَكذيباً لمَقولته، أكثَر صِدقاً مِنّا..
فقد كُنّا خطَّين لا يلتَقيان..

والتَقينا!"

عُديّ الجَمّال،
لِمَن سرقَت بعسليّتيها، قَلبي!

° ° °

تَمَّت بحَمد الله.

رغد أيمن

رسالة شُكر:

جديرٌ بالذِكر هُنا، أن أشكر أبطال روايتي..

"عُديّ"

"يُوسُف"

"ريتاچ"

والدة ريتاچ

والدة "عُديّ"

وحتى ذاكَ الوغدُ، **"شِهاب"**!

في الواقِع لم تكن مُجرَّد رواية خيالية، ولكنّها كانت لي، ولكثيرٍ ممن قرأها، حياةً نتمنى أن لو نغوصَ بداخلها.♡